الفصل الرابع

دور الفقهاء في تحقيق الوحدة السياسية في الأندلس والتصدى لحركة المد النصرانى وموقف المرابطين من دعوتهم

١ ـ المواقف السياسية الفردية للفقهاء ، بعض الأمثلة :

أ ـ الفقيه ابن حزم ودوره السياسى نحو تحقيق وحدة الأندلس

ب ـ الفقيه أبو إسحاق الألبيرى .

جـ ـ الفقيه أبو القاسم خلف بن فرج الألبيرى .

د ـ الفقيه أبو محمد عبدالله بن أحمد المعروف بابن العسال .

٢ ـ جهود فقهاء الأندلس فى تحقيق الوحدة السياسية . الخامس الهجرى والتصدى لحركة المد النصرانى .

٣ ـ دور فقهاء الأندلس فى معركة الزلاقة ٤٧٩هـ١٠٨٦م .

٤ ـ دور فقهاء الأندلس فى الحفاظ على الوحدة المذهبية .

تـمهيـد

لم تكن ظاهرة استقلال الفقهاء بإمارة المدن الكبرى فى الأندلس ورئاستها قاصرة على إشبيلية وقرطبة وبلنسية فقط بل كانت بواكير هذه الظاهرة فى طليطلة ، فقد تولى كل من الفقيه " أبو بكر يعيش بن محمد بن يعيش بن منذر الأسدى "والفقيه " أبو عمر أحمد بن سعيد بن كوثر" رئاسة بلدهما حتى استطاع " ابن يعيش " أن ينفرد بالرئاسة ولكنه ظل متمسكاً بلقب الفقيه ولم يتخذ أى ألقاب سياسية ، كما ظل يرتدى زى العلماء وحكم طليطلة حكماً حسناً ، وقد أشار القاضى عياض إلى أنه كان من أهل الصلاح والتقوى وولى الجهاد والحج ، ثم أبتلى بحب الدنيا فثار عليه أهل طليطلة وخلعوه وقتلوا ولده الذى كان يتولى تدبير الأمور السياسية نيابة عن والده سنة ٤١٧هـ١٠٢٥م(١) .

أما فى عهد "ابن ذى النون"فقد لعب الفقهاء دوراً هاماً على مسرح الأحداث السياسية فى طليطلة ، ففى عهد " إسماعيل بن ذى النون " كان لايقطع أمراً دون مشاورة الفقيه " أبى بكر الحديدى " الذى أحبه الناس واحترموه ، وقد امتلأت طليطلة بأعداد كبيرة من الفقهاء مثل الفقيه " عبدالرحمن بن مخلد " (ت. ٤٣٧هـ١٠٤٥م) (٢) ، والفقيه "عبدالله بن أحمد بن عثمان" المعروف بابن القشارى (ت. ٤١٧هـ١٠٢٥م) (٣) والفقيه " عبدالله بن فرج بن غزلون اليحصبى " المعروف بابن العسال (ت.٤٨٧هـ١٠٩٤م)(٤) والفقيه"عبدالله بن سليمان المعافرى " المعروف بابن المؤذن (ت. ٤٦٠هـ١٠٦٨م) (٥) .

ولما توفى " إسماعيل بن ذى النون " قسم إبنه "يحيى" الذى لقب بالمأمون السلطة على رجلين فجعل لـ " أبى سعيد بن فرج " أمور تدبير الجيش ، وجعل الرأى والمشورة لـ " أبى بكر الحديدى ".وكان من أشهر فقهاء طليطلة فى ذلك الوقت" عبد الرحمن بن محمد" المعروف

(١) ترتيب المدارك ، جـ ٤ ، ص ٧٥٦ .
(٢) ابن بشكوال : الصلة ، جـ ١ ، ص ٣١٥ .
(٣) نفس المصدر ، ص ٢٢٥ .
(٤) نفس المصدر ، ص ٢٧٦ .
(٥) نفس المصدر ، ص ٢٧٠ .

بابن الحشا (ت. ٤٧٣هـ١٠٨١م) الذى تولى القضاء بعد وفاة الفقيه " أبى الوليد أحمد بن عبدالرحمن بن صاعد " (ت. ٤٤٩هـ١٠٥٧م) (٦) .

وقد حدثت فتنة فى طليطلة حيث امتحن الفقيه"أبوزيد الحشا" بالسجن هو وستة من كبار الفقهاء منهم الفقيه"أبوجعفر أحمد بن سعيد اللورانكى " (٧) والفقيه "أبوجعفر أحمد بن محمد بن مغيث " (٨) المعروف بابن أرفع رأسه ، ومن الواضح أن "ابن ذى النون " قد أتهمهم بالتآمر على سلطانه فنهبت دورهم وحبسوا ، وسيطر الفقيه "أبوبكر الحديدى" على مقاليد الأمور وأتهم بتدبير هذه المؤامرة .

وفى عهد " القادر بن ذى النون " الذى اتسم بالضعف فكان الحكم فى يد الفقيه "أبى بكر الحديدى" الذى حجب دونه كل سلطة ، وعجز " القادر " عن الحد من سلطته فأخرج له الفقهاء من السجن ليكونوا جبهة تحاربه وتقف أمامه ، و بالفعل إستطاع الفقهاء القضاء على " ابن الحديدى " وقتله ومعه إثنين من الفقهاء الموالين له وكان ذلك بمساعدة الفقيه " ابن المشاط "(٩)،كما سجن إبنه "أبو الطيب بن الحديدى "الذى كان قد تولى القضاء،ومكث فى سجنه حتى توفى سنة ٤٧١هـ١٠٧٨م (١٠) .

---

(٦) ابن بشكوال : الصلة ، جـ ١ ، ص ٥٩ .؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ، جـ ٤ ، ص٨١٧

(٧) أبو جعفر أحمد بن سعيد اللورانكي هو أحمد بن سعيد بن غالب الأموى ، فقيه جليل كان ضمن الفقهاء الذين امتحنوا على يد ابن ذى النون وشاركه فى هذه المحنة ستة فقهاء منهم ابن مغيث وابن أرفع رأسه وابن الحشا ، وابن اللورانكى من أهل الأدب واللغة والفرائض إضافة إلى علمه بالحديث والتفسير ، كان مشاوراً للأحكام ، دربا للفتيا ، وعرف بالتواضع ، توفى سنة ٤٦٩هـ . أنظر ابن بشكوال : الصلة ، جـ ١ ، ص ٦٧ .؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ، جـ ٤ ، ص٨١٩

(٨) أحمد بن مغيث بن أحمد بن مغيث الصدفي وكنيته أبو جعفر من طليطلة ، كان دربا بالفتيا ، من أهل الرئاسة والفهم والعلم إضافة إلى علمه بالحديث والتفسير والحساب واللغة والإعراب وعقد الشروط ، كان كثير الصدقة ، توفى سنة ٤٥٩هـ . أنظر ابن بشكوال : الصلة ، جـ ١ ، ص ٦٤ .؛ ابن سهل : الأحكام الكبرى ، ص ٨٨٢ .؛ محمد عبدالوهاب خلاف ، ثلاث وثائق فى محاربة الأهواء والبدع ، القاهرة ،١٩٨١م ، ص ١١١ هامش ٢ .

(٩) هو أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن أحمد التيجى من أهل قرطبة من أهل العلم والأدب ولى الشورى والوثائق للسلطان وتولى قضاء عدة مدن ، استجه وأشبونة وقرمونة فى عهد المنصور بن ابى عامر ، ثم صرفه عنها وولاه أحكام السوق وقضاء جيان ثم قضاء بلنسيه وقلده التاريخ فجمع كتابه الباهر وتوفى فى أيام المظفر بن ابى عامر سنة ٣٩٦هـ ، أنظر ابن بسام : الذخيرة ، ق ٤ ، جـ ١ ، ص ١٥٢ ، ١٥٣ .؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ، جـ ٤ ، ص ٨٢٠ .؛ محمد عبدالوهاب خلاف : تاريخ القضاء فى الأندلس ، ص ١٤٤ ، ١٤٥

(١٠) ابن بسام : الذخيرة ، ق ٤ ، جـ ١ ، ص١٥٥ .؛ محمد عبدالوهاب خلاف : تاريخ القضاء فى الأندلس ، ص ١٤٢ - ١٤٩ .

وهناك العديد من الفقهاء الذين تعرضوا لمحن لم تشر المصادر إلى سببها فى طليلطة مثل الفقيه"هشام بن عبدالرحمن بن أحمد الأنصارى " (ت. ٣٦٩هـ٩٦٧م) الذى مات مقتولاً (١١) ، وقد عللت بعض كتابات المؤرخين أسباب هذه المحن بأمور سياسية أو مكائد بين الفقهاء ،ومنهم من آثر العزلة مثل الفقيه " محمد بن عبدالرحمن بن يحيى "المعروف بابن شق حبة (ت. ٤٤٣هـ١٠٥١م) (١٢) ، وهناك من رفضوا خطة القضاء بطليطلة مثل الفقيه "خلف بن أحمد بن خلف الأنصارى " (ت. ٤٢٠هـ١٠٢٩م) (١٣) .

فقهاء سرقسطه :

كما كان للفقهاء فى سرقسطة دور كبير فى إثبات وفاة حاكمها " منذر بن يحيى التجيبى"(ت. ٤٣٠هـ١٠٣٨م)والانتقام من قاتله"عبدالله بن حكم " ابن " منذر بن يحيى " وأحد قواده الذى استدعى قاضى البلدة وفقهائها بعد مقتل " منذر " فدخلوا عليه فوجدوه قد أخذ مكانه " ومنذر " إلى جواره جثة مرمل فى دمائه مغطى بثيابه وطلب منهم تهدئة العامة فتظاهروا بقبول أوامره ثم أثاروا عليه العامة فقتلوه (١٤) .

ولكن هذه الظاهرة إنتشرت فى عديد من الإمارات فى الأندلس ، ففى إمارة شلب ثار القاضى "عيسى بن أبى بكر بن مزين " سنة ٤٤٠هـ ١٠٤٨م واستقل بحكمها وكانت قبل ذلك تحت حكم الحاجب " عيسى بن محمد " الذى استقل بها وقت الفتنة ثم ورثها ابنه " محمد بن عيسى " عميد الدولة الذى مالبث أن توفى حتى استقل بها " عيسى بن مُزيَن " الذى لم يعجبه إختلال الأوضاع فيها فثار وبايعه أهلها .

وكورة شلب إحدى إمارات غرب الأندلس التى تعرضت لمهاجمة بنى عباد حيث قام " أبو القاسم محمد بن عباد " بالهجوم عليها فأخذ مرتلة وباجة التابعتين لها ، واصل

---

(١١) ابن بشكوال : الصلة ، جـ ٢ ، ص ٦١٦ .
(١٢) نفسه ، ص ٥٠٢ .
(١٣) نفسه ، ص ٤٧٨ .
(١٤) ابن بسام: الذخيرة، ق١ ،جـ ١،ص١٨٠-١٨٩؛محمد عبدالوهاب خلاف : تاريخ القضاء فى الأندلس ، ص ١٥٦

إبنه " المعتضد " الإغارة عليها فى حين ظل " عيسى بن مزين " يدافع عنها قرابة خمس سنوات ، فهادن وصانع " ابن عباد " لكن ابن عباد لم يكف عن الهجوم ودارت العديد من الحروب التى قتل خلالها " ابن مزين " .

وكان القاضى " ابن مزين " من الذين حكموا بالعدل فجند الجنود وضبط الرجال وقسم الأموال ،وخلفه ابنه "محمد" الذى توفى سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م ، ثم خلفه ابنه "عيسى المظفر "الذى شابه جده فى إسمه وحكمه ، لكن " ابن عباد " ضيق الحصار على المدينة حتى استطاع الإستيلاء عليها وقتل " المظفر " سنة ٤٥٥هـ / ١٠٦٣م وبذلك إنتهت إمارة بنى مزين (١٥) .

ولم تكن إمارة شلب وحدها التى استقلت تحت حكم الفقهاء وإنما شاركتها إمارة ولبة وجزيرة شلطيش التى قامت على يد " أبو زيد محمد بن أيوب البكرى " (١٦) الذى كان قد تولى خطة الرد بقرطبة ، وولى قضاء بلده (١٧) . وقد تولى الحكم بعده "عبدالعزيز البكرى " الذى حاول مهادنة " المعتضد بن عباد " كما فعل " ابن مزين " وتنازل " البكرى " عن ولبة فاغتر "المعتضد " وسعى لإخراجه من شلطيش أيضاً ، وكان له ماأراد بعد حصار لشلطيش استسلم بعده " البكرى" سنة ٤٤٣هـ١٠٥١م وطلب الأمان فأمنه " ابن عباد "، ولحق " عبدالعزيز " بقرطبة فى كنف " أبى الوليد بن جهور "، وقد ذكر ابن عذارى أنه لحق بإشبيلية فى كنف " ابن عباد " حتى مات سنة ٤٥٠هـ١٠٥٨م، وهكذا لم يدم حكم البكريين أكثر من أربعين عاماً (١٨) . على أنه قد استطاع " عبدالله بن عبدالعزيز البكرى " وكنيته

---

(١٥) ابن الأبار : الحلة السيراء ، جـ ٢ ، ص١٨ ، ١٩ .؛ ابن عذارى : البيان ، جـ ٣ ، ص ٢٩٦ ـ ٢٩٨ .؛ محمد عبدالله عنان : دول الطوائف ، ص ٤٣ ، ٤٤ .

(١٦) ذكر محمد عبدالله عنان أن أبا زيد هو لقب عبدالعزيز البكرى مؤسس دولة البكريين وهذا خطأ ، فقد ورد عن ابن الأبار أن مؤسس الدولة هو أبو زيد محمد بن أيوب البكرى أما عبدالعزيز فكنيته أبو مصعب . أنظر دول الطوائف ، ص ٤٣ .؛ ابن الأبار : الحلة ، جـ ٢ ، ص ١٨٠ .؛ محمد أبو الفضل : أبو عبيد البكرى والبكريون فى ولبة وشلطيش ، بحث منشور بكلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية سنة ١٩٨٣م .

(١٧) ابن الأبار : الحلة ، جـ ٢ ، ص ١٨١ .

(١٨) ابن عذارى : البيان ، جـ ٣ ، ص ٢٩٩ .؛ محمد عبدالله عنان : دول الطوائف ، ص ٤٣.

أبو عبيد أن يفر من يد " ابن عباد " إلى قرمونه ثم قرطبة وكان فقيهاً مشهوراً وله كتاب بعنوان " أعلام نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم)"(١٩) وقد أشار ابن بشكوال إلى معرفته بعلم الأنساب إضافة إلى أنه كان عالماً لغوياً وشاعراً وأديباً وجغرافياً حتى قال عنه ابن الأبار:" كان أبو عبيد البكرى من مفاخر الأندلس وهو أحد رؤساء الأعلام وتواليفه قلائد فى أجياد الأيام " (٢٠) ، وقال عنه ابن خاقان :" وكان كل ملك من ملوك الأندلس يتهاداه تهادى المقل للكرى " (٢١) ، وذكر أنه اتصل بالمعتصم بن صمادح صاحب المرية الذى أخذه فى كنفه ورفع مرتبته ، وقد كتب شعراً خاطب فيه ابن السقاء وزير " أبى الوليد بن جهور " ونثراً فى الثناء على "المعتمد بن عباد" وتوفى سنة ٤٨٩هـ١٠٩٧م (٢٢) وقيل قبل ذلك بعام (٢٣) .

المواقف السياسية الفردية للفقهاء ، بعض الأمثلة :

أ ـ الفقيه ابن حزم ودوره السياسى نحو تحقيق وحدة الأندلس

إذا كانت الأندلس فى هذه الحقبة قد أفرزت العديد من الفقهاء الذين سعوا وراء الطموح الذاتى واستغلال الظروف لتحقيق أطماع سياسية فإن هناك فقهاء آخرين قد حاربوا هذا الاتجاه ودافعوا عن وحدة الأندلس تحت قيادة واحدة ، ولم يكن لهؤلاء هدف فى جاه سياسى وإنما سعوا لغاية أسمى ألا وهى الحفاظ على الأراضى الأندلسية ، ومن هؤلاء الفقهاء الفقيه " ابن حزم"(٣٨٤ ـ ٤٥٦هـ٩٩٢ ـ ١٠٦٤م)(٢٤) ، فهو ـ كما سبقت الإشارة ـ ابن الوزير " أحمد بن سعيد بن حزم " الذى عمل وزيراً لدى "المنصور بن أبى عامر" الذى كان قد استبد بالحكم دون " هشام المؤيد " ، كما ظل فى الوزارة فى عهد " المظفر بن أبى

(١٩) أنظر ترجمته فى السيوطى : بغية الوعاه ، جـ ٢ ، ص ٤٩ .؛ ابن سعيد : المغرب ، جـ ١ ، ص ٣٤٧ .
(٢٠) ابن بشكوال : الصلة ، جـ ١ ، ص ٢٧٧ .؛ الحلة السيراء ، جـ ٢ ، ص ١٨٥ .
(٢١) ابن خاقان : قلائد العقيان ، جـ ٣ ، ص ٦١٥ .
(٢٢) ابن الأبار : الحلة السيراء ، جـ ٢ ، ص ١٨٦ ، ١٨٧ .
(٢٣) ابن بشكوال : الصلة ، جـ ١ ، ص ٢٧٨ .؛ السيوطى : بغية الوعاه ، جـ ٢ ، ص ٤٩ .
(٢٤) سبقت الإشارة إلى جانب من دوره السياسى فى علاقته مع بنى عباد فى الفصل الأول .

عامر" ، وفى ذلك إشارة إلى أن والد " ابن حزم " كان من أنصار العامريين حتى سنة ٣٩٩هـ١٠٠٧م حيث كانت الأمور قد اضطربت فى قرطبة وكانت نهاية دولة بنى عامر(٢٥) . وشهد "ابن حزم" كل هذه الإضطرابات وكان عمره لايتجاوز الخمسة عشر عاماً(٢٦) ، ورافق والده فى الإنتقال من القصور التى أقام فيها فى مدينة الزهرة (٢٧) إلى القصور القديمة فى غرب قرطبة . ويبدو أن والده قد أخذ الأمان ممن آلت إليه الخلافة وهو " محمد بن هشام بن عبدالجبار " الملقب بالمهدى(٢٨) ، بل إنه قد اختار مع القاضى " ابن ذكوان " ليكونا من رجاله وليسعيا لإطفاء الثورة التى قام بها " هشام بن سليمان الناصر " ومن معه من البربر وحاصروا قصر الخليفة " المهدى " ، وقد خرج لهم " ابن حزم " و " ابن ذكوان " ودارت بين الجانبين مناقشات أصر فيها " هشام" على أحقيته فى الحكم واشتعلت معركة انتهت بهزيمة " هشام " ومن معه (٢٩) ، وفر من بنى أمية أخ لهشام يدعى " سليمان بن الحكم " الذى لقب بالمستعين ، وحاول الإستعانة بالبربر فى الوصول إلى الحكم وأعلن نفسه خليفة وأوصى الفتيان الصقالبة بأن يحافظوا على "هشام المؤيد" فى أجنحة القصر لكن الصقالبة أخرجوا " هشام "من محبسه ثم قبضوا على "المهدى " وأتوا به إلى هشام فقتله فأصيبت عائلة " ابن حزم "المتعاونة مع "المهدى" بالأذى فى ظل الأوضاع الجديدة (٣٠) وقد شهد والد " ابن حزم " جنازة "هشام المؤيد" المزعومة (٣١)

---

(٢٥) ابن حزم : طوق الحمامة فى الألفة والآلاف ، رسائل ابن حزم ، جـ ١ ، ت . إحسان عباس ، ص ٢٥١ .؛ عبدالرحمن الشرقاوى : شخصيات إسلامية ، أئمة الفقه التسعة - بيروت ١٩٨١م ، ص ٢٣٠ ، ٢٣١ .؛ محمد أبو زهرة : ابن حزم ، حياته ، عصره ، آراؤه - القاهرة ١٩٥٤م ، ص٣٩ .

(٢٦) ابن حزم : طوق الحمامة ، جـ ١ ، ص ٢٥١ .

(٢٧) مدينة الزاهرة مدينة متصلة بقرطبة بناها المنصور بن أبى عامر وأقام فيها قصره وقصور وزرائه وانتقل إليها سنة ٣٧٠هـ ، خربت وقت الفتنة القرطبية . أنظر ابن غالب : فرحة الأنفس ، ص ٢٩٩ .؛ الحميرى : الروض المعطار ، ص ٢٨٣ ، ٢٨٤ .

(٢٨) عبدالكريم خليفة : ابن حزم حياته وأدبه ، بيروت ، ب. ت. ، ص ٤٤ .؛ ذكر الحموى أن والد ابن حزم قد عمل وزيراً للمهدى ثم لهشام المعتد . أنظر : ابن حزم : طوق الحمامة ، ص ٢٥١ .؛ الحموى : معجم الأدباء ، جـ١، ص ٨٧ .

(٢٩) محمد عبدالله عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ، ص ٦٤٧ .

(٣٠) ابن حزم : طوق الحمامة ، ص ٢٥١ .

(٣١) عبد الكريم خليفة : ابن حزم ، ص ٤٦ .

وشاهد ماقاسته قرطبة من انتشار الفقر والمرض ووباء الطاعون الذى أصاب أخ لابن حزم يدعى " أبو بكر " حيث توفى وعمره إثنتين وعشرين عاماً سنة ٤٠١هـ ١٠٠٩م ، وسرعان ماتوفى والد " ابن حزم " نفسه فى العام التالى (٣٢) .

ولاشك أن هذه الفتن والإضطرابات السياسية التى عايشها " ابن حزم " كان لها تأثيرها على اتجاهه السياسى والمذهبى أيضاً ، فقد أحس أن إندثار الخلافة الأموية هو السبب الرئيسى فى كل هذه الفتن وأن الوحدة السياسية فى ظل الحكم الأموى هى الحل الأمثل فى الأندلس ولهذا ظل متمسكاً بشرعية الخلافة الأموية .

وقد اضطر " ابن حزم " لترك قرطبة بعد أن نجح " المستعين " فى العودة إلى حكمها وقتل " هشام المؤيد " وتمكين أعوانه من البربر الذين أشاعوا الفوضى وأعملوا السلب والنهب فى قرطبة وكان بيت " ابن حزم " من بين البيوت التى اجتاحها هؤلاء فانتقل إلى المرية وأقام فيها (٣٣) .

وظل " ابن حزم " يحيا حياة هادئة فى المرية حتى انتهت خلافة بنى مروان وقامت دولة الحموديين سنة ٤٠٧هـ١٠١٥م (٣٤) ، حتى قام " خيران " باعتقاله وصاحبه "محمد بن إسحاق" (٣٥) بسبب علمه بدعوتهما للخلافة الأموية ، وكان " خيران " من المخالفين للحموديين حفاظاً على أملاكه . على أن " خيران " قد عاد وأطلق سراحه بشرط أن يترك المرية (٣٦) .

---

(٣٢) ابن حزم : طوق الحمامة ، ص ٢٥٩ .

(٣٣) ابن بسام : الذخيرة ، ق ١ ، جـ ١ ، ص ٣٧ .؛ ابن حزم : طوق الحمامة ، ص ٢٥٢،٢٥١

(٣٤) ابن عذارى : البيان ، جـ ٣ ، ص ١١٦ .؛ محمد عبدالله عنان : دولة الإسلام ، ص ٦٥٩ .؛ خالد الصوفى : تاريخ العرب فى أسبانيا ، ص ١٥٩ .

(٣٥) محمد بن إسحاق المهلبى هو أبو بكر الإسحاقى الوزير ، من أهل الفضل والأدب وكان من أنصار الدولة الأموية خاطبه ابن حزم فى رسالته فضل الأندلس. أنظر الحميدى : جذوة المقتبس ، ق ١ ، ص ٨٣ .؛ الضبى : بغية الملتمس ، جـ ١ ، ص ٨٦ .؛ ابن حزم : رسائله ،جـ١ ، ص١١٢ .

(٣٦) ابن حزم : طوق الحمامة ، ص ٢٦١ .؛ عبداللطيف شرارة : ابن حزم رائد الفكر العلمى ، ص ٤٢ ، ٤٣ .؛ عبدالكريم خليفة : ابن حزم ، ص ٥٣ .؛ زكريا إبراهيم : ابن حزم المفكر الظاهرى الموسوعى ، ص ١٨ .؛ إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ، ص ٥٩ .

فاتجه " ابن حزم " وصاحبه نحو حصن القصر(٣٧) ومكث لدى صاحبه " أبو القاسم عبدالله بن هذيل التجيبى " الذى أكرم وفادته ، ولكن " ابن حزم " وصاحبه لم يمكثا كثيراً فاتجها إلى بلنسية حيث كان الحزب الأموى يسعى لاسترداد السلطة ، وكانت بلنسية تحت حكم الأخوين الصقلبيين " مبارك ومظفر " اللذين لم يعاديا الخليفة " المرتضى " ولم يعارضا فى إتخاذه . أى ابن حزم . بلنسية منطلقاً لدعوتهم(٣٨) وأجمعوا أمرهم على ترشيح"عبدالرحمن بن محمد بن عبدالملك بن الناصر" ولقبوه بالمرتضى سنة ٤٠٨هـ١٠١٦م(٣٩) .وكان الفقيه"ابن حزم " من المؤيدين لهذا الخليفة وشاركه فى هذا التأييد " خيران العامرى " الذى تغيرت سياسته بعد أن إنقلب على بنى حمود على أثر علمه بمقتل " هشام المؤيد "خشية على أملاكه منهم فسعى لاستعادة حكم بنى أمية (٤٠) .

انضم الفقيه " ابن حزم " إلى الحزب الأموى لقناعته بأنه لاتوجد خلافة شرعية سواها وأن الوحدة السياسية يجب أن تتحقق من خلالها ، وأخذ يدبر الأمر مع الحزب الأموى لإرجاع الخليفة إلى قرطبة ، واتجهوا صوب قرطبة لكنهم مروا فى طريقهم على غرناطة حيث كان حاكمها" زاوى بن زيرى "الصنهاجى البربرى الذى كان موالياً للحموديين ومناوئاً لبنى أمية ، وبالطبع دارت حرب بين الفريقين شارك فيها "ابن حزم" وانتهت بهزيمة الحزب الأموى وسجن"ابن حزم"في ٤٠٩هـ١٠١٧م (٤١) .

---

(٣٧) حصن القصر Alkazer يقع ما بين إشبيليه ولبلة ، مدينة حسنة متوسطة على ضفة نهر كبير وهو نهر تصعد فيه السفن ، وقد استدار بها أرض كلها شجر الصنوبر وهى خصبة كثيرة الألبان والسمن والعسل وبينها وبين البحر عشرون ميلا. الإدريسى : نزهة المشتاق ، جـ٢ ، ص ٥٤٤ .؛ الحميرى : الروض المعطار ، ص ٤٧٦ ، ٤٧٧ .؛ الحميرى : صفة جزيرة الأندلس ، المكتبة الشاملة ، الإنترنت .

(٣٨) ابن حزم : الأخلاق والسير فى مداواة النفوس ، تحقيق الطاهر مكى ، دار المعارف القاهرة ، طـ ٢ ، سنة ١٩٩٢م ، ص ١٤٩ .

(٣٩) ابن عذارى : البيان ، جـ ٣ ، ص ١٢١ .

(٤٠) الأمير عبدالله الزيرى : التبيان ، ص ٢٢ .؛ ابن عذارى : البيان ، جـ ٣ ، ص ١٢١ .؛ محمد عبدالله عنان : دولة الإسلام ، ص ٦٦٠ .؛ سالم يفوت : ابن حزم والفكر الفلسفى ، ص٥٤ .

(٤١) ابن حزم : طوق الحمامة ، جـ ١ ، ص ٣٨ .

واختلفت كتابات المؤرخين حول تحديد الوقت الذى قتل فيه " المرتضى " فمنهم من ذكر أنه قتل فى معركته مع البربر (٤٢) ، ومنهم من ذكر أنه قتل بعد المعركة حيث لجأ بعد هزيمته إلى قادس (٤٣) فدس له " خيران العامرى " المتقلب الأوضاع من قتله (٤٤) .

وخرج الفقيه " ابن حزم " من سجنه متأثراً بهذه التجربة السياسية الفاشلة وهو الذى كان يأمل أن يدخل قرطبة موطنه ومسقط رأسه ظافراً فخابت آماله ، لكنه علم أنها تحت حكم " القاسم بن حمود " حيث نعمت بالهدوء فى عهده بعد أن اتبع سياسة إصلاحية ، فتشجع " ابن حزم " على العودة إلى قرطبة سنة ٤٠٩هـ١٠١٩م وكان فى سن الخامسة والعشرين (٤٥) . وانصب اهتمام " ابن حزم " على دراساته الدينية والأدبية وتلقى العلم على يد شيوخ الحديث والفقه وتبلور لديه المذهب الظاهرى فنمى عقله وازداد اتزانه واتسعت مداركه .

على أن " ابن حزم " قد ظل على حماسه السياسى فقد علق على وجود خليفتين متصالحين فى آن واحد وهما " يحيى بن على بن حمود " فى قرطبة و " القاسم بن حمود " فى إشبيلية فذكر فى تعليقه :" هو أمر لم يسمع فى الدنيا بأشنع منه ولاأدل على إدبار الأمور " (٤٦) .

---

(٤٢) ابن عذارى : البيان ، جـ ٣ ، ص ١٢٦ ، ١٢٧ .؛ عبدالرحمن الشرقاوى : شخصيات إسلامية ،أئمة الفقه التسعة بيروت ،سنة١٩٨٣م ،ص ٢٣٧ .؛ زكريا إبراهيم : ابن حزم الأندلسى ، ص ١٩ .

(٤٣) قادس Cadiz جزيرة بالأندلس قرب إشبيلية ، وهى مدينة قديمة أسسها الفينيقيون ، بها مزارع كثيرة وآثار للأول وصنم مشهور بناه أحد قواد الروم وأحاطه أهل الجزيرة بخرافات عديدة . أنظر الحميرى : الروض المعطار ص٤٤٨ ، ٤٤٩ .؛ سحر سالم : قادس ودورها السياسى والحضارى للأندلس ، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية ، سنة ١٩٩٠م .

(٤٤) محمد عبدالله عنان : دولة الإسلام ، ص ٦٦٠ .؛ عبدالكريم خليفة : ابن حزم حياته وأدبه ، ص ٥٤ .؛ سالم يفوت : ابن حزم والفكر الفلسفى ، ص ٥٥ .

(٤٥) ابن حزم : طوق الحمامة ، ص ٢٥٢ .

(٤٦) ابن حزم : رسائله ، جـ ٢ ، نقط العروس فى تاريخ الخلفاء ، ص ٤٨٥ .؛ زكريا إبراهيم : ابن حزم المفكر الظاهرى ، ص ١٩ .

ومالبث أن خلع " يحيى "وتولى" القاسم " الخلافة فى قرطبة ولكنه لم يحسن السياسة (٤٧) ، وربما كان هذا عاملاً أسهم فى نشاط الحزب الأموى فى قرطبة حيث ظهر " أبو المطرف عبدالرحمن بن هشام بن عبد الجبار الناصرى "، وهو أخ للخليفة المهدى، ودعا لنفسه بالخلافة وبث دعاته فى قرطبة وكان " ابن حزم " فى مقدمة المؤيدين له . وأسهم ذلك فى إثارة أهل قرطبة على البربر وأعلنوا خلع " القاسم بن حمود" سنة ٤١٤هـ١٠٢٢م واختاروا " أبا المطرف " الذى لقب بالمستظهر بالله مكانه (٤٨) ، وقد استعان بابن حزم حيث اتخذه وزيراً له مع عديد من الوزراء كان منهم " أبو المغيرة عبدالوهاب بن حزم " ابن عم الفقيه ابن حزم . من بين وزرائه (٤٩) .

ولم يلبث الخليفة "المستظهر" فى الحكم إلا أياماً قلائل ثم ثار عليه ابن عمه "المستكفى" ومعه طائفة من أهل قرطبة فقتلوه سنة ٤١٤هـ / ١٠٢٢م (٥٠) . وانهارت آمال الفقيه " ابن حزم " فى أن تتحقق الوحدة السياسية من خلال صديقه الشاب "المستظهر"وأودعه الخليفة الجديد ومعه ابن عمه "أبو المغيرة" فى السجن فظل فيه حتى سنة ٤١٦هـ١٠٢٤م عند انتهاء خلافة " المستكفى " (٥١) .

واتجه " ابن حزم " إلى شاطبة فور خروجه من السجن تاركاً قرطبة ، وكانت تحت حكم الفتيان الصقالبة " مبارك ومظفر" اللذين كانا على علاقة طيبة به منذ أن كان مقيماً فى بلنسية ، وانكب على الكتابة والتأليف فأخرج كتاب " طوق الحمامة " سنة

---

(٤٧) عبدالكريم خليفة : ابن حزم ، ص ٥٦ .

(٤٨) بسام : الذخيرة ، ق ١ ، جـ ١ ، ص ٤٨٥ .؛ ابن عذارى : البيان ، جـ ٣ ، ص ١٣٥ .؛ ابن زكريا إبراهيم : ابن حزم ، ص ١٩ .

(٤٩) إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ، ص ٣١٠ .؛ عبدالكريم خليفة : ابن حزم ، ص٥٧ .؛ سالم يفوت : ابن حزم والفكر الفلسفى ، ص ٥٦ .؛ عبداللطيف شرارة : ابن حزم ، ص ٢٤٤. وعبد الوهاب بن أحمد بن سعيد بن حزم بن المغيرة كان من المهتمين بالأدب والشعر والبلاغة ، توفى سنة ٤٢٠هـ / ١٠٢٨م ، وذكر ابن بشكوال أن وفاته كانت سنة ٤٣٨هـ . أنظر الصلة ، جـ ١ ، ص ٣٦٢ .؛ الحميدى : الجذوة ، ق ٢ ، ص ٤٦١ .؛ الضبى : بغية الملتمس ، جـ٢ ، ص ٥١١ .؛ ابن بسام : الذخيرة ، ق ١ ، جـ ١ ، ص ١٣٢ .؛ ابن خاقان : مطمح النفس ، ص ٢٠٢ .

(٥٠) ابن عذارى : البيان ، جـ ٣ ، ص ١٣٨ .

(٥١) نفس المصدر،ص ١٤٣؛محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام ، ص ٦٦٦ .؛ عبدالكريم خليفة : ابن حزم ، ص ٥٨

٤١٨هـ١٠٢٦م وهو نفس التاريخ الذى قرر فيه القرطبيون أن يعود زمام الأمور لبنى أمية لكن " ابن حزم " كان قد قرر. كما رأى بعض المؤرخين . إعتزال السياسة بعد أن فقد الأمل فى عودة الخلافة الأموية وركز إهتمامه على العلم والتحصيل والاستماع إلى الفقهاء والمفكرين والأدباء والشعراء وآثر أن يكون مدافعاً عن الإسلام أمام مهاترات اليهود والنصارى وإن كان أمله فى أن تتحقق أهدافه السياسية قد ظل يلازمه (٥٢) .

على أن اتجاه " ابن حزم " هذا كان وليد إحساسه بفداحة المشكلة السياسية وأنها كانت أكبر من مجرد تولية شخص أو خلع آخر وأن الخلل يكمن فى النفوس والعقول التى لايداويها سوى العلم (٥٣) ، ولهذا ركز إهتمامه على أن يجعل من العلم سبيلاً لخدمة الأهداف السياسية النبيلة التى كانت تتمثل فى تحقيق الوحدة السياسية فى الأندلس التى هى السبيل للتصدى لحركة الاسترداد النصرانى .

وعاد " ابن حزم " إلى المعترك السياسى مرة أخرى حين ظهر خليفة أموى جديد هو " هشام المعتد بالله" سنة ٤١٨هـ١٠٢٦م فى حصن ألبونت واستوزر " ابن حزم" (٥٤) لكنه سرعان ماودع ذلك المعترك فى أعقاب الإطاحة بـ " هشام المعتد بالله " سنة ٤٢٢هـ١٠٣٠م وكان آخر خلفاء بنى أمية حيث أسند الحكم لـ " أبى الحزم بن جهور" الذى تولى رئاسة الجماعة فى قرطبة ، ونودى فى قرطبة بألا يبقى أحد من بنى أمية ولايأويهم أحد (٥٥) ، ودخلت قرطبة عهداً جديداً إنتهت فيه الفتن والاضطرابات وذهبت الخلافة الأموية نهائياً ، وتأكد للفقيه " ابن حزم " من جديد بأنه لاجدوى من تحقيق هدفه السياسى وأن عليه أن يؤمن بسياسة الأمر الواقع .

---

(٥٢) زكريا إبراهيم : ابن حزم ، ص ١٩ .؛ إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسى ، ص ٣١٠ .؛ محمد أبو زهرة : ابن حزم ، ص ٤٣ .

(٥٣) عبداللطيف شرارة : ابن حزم ، ص ٤٥ .

(٥٤) الحموى : معجم الأدباء ، جـ ١٢ ، ص ٨٧ .؛ عبدالكريم خليفة : ابن حزم ، ص ٦١ .

(٥٥) ابن عذارى : البيان ، جـ ٣ ، ص ١٥٢ .؛ المقرى : نفح الطيب ، جـ ٤ ، ص ٥٩ .؛ ابن حزم : رسائله ، جـ ٢ ص ٢٠٣ .

وذكرت بعض كتابات المؤرخين أنه نبذ الوزارة أو أن الوزارة نبذته ، وهنا تجدر الإشارة إلى أن مساعى " ابن حزم " للوزارة كانت بغرض تحقيق هدفه السياسى أكثر من كونها جرياً وراء جاه أو منصب مادى ، ولعل سجنه عدة مرات وتحمله للمحن دليل على ذلك وأن تركه للوزارة كان نتيجة ليأسه من تحقيق هدفه السياسى (٥٦) .

على أن الظروف السياسية التى أحاطت بالفقيه " ابن حزم " كان لها تأثيرها على شخصيته حيث جعلت منه إنساناً صلباً صارماً متمسكاً برأيه مدافعاً عن وجهة نظره مناضلاً بقوة إرادة وكذلك أسهمت فى أن يكون عصبى المزاج سريع الغضب ، كما أسهمت فى صياغة إتجاهه المذهبى واعتناقه للمذهب الظاهرى وتمسكه به على الرغم من اتساع دائرة معارضيه . كما أنه ظل متمسكاً برأيه السياسى الذى برز فى كتاباته التى كان حريصاً فيها على أن يظهر بين الحين والآخر وهو أنه متشيع لبنى أمية ومعتقد فى صحة إمامتهم وغير مؤيد لسواهم (٥٧) .

وعلى الرغم من أن الظروف السياسية فرضت عليه قبول الأمر الواقع فى المعترك السياسى إلا أن كتاباته أكدت عدم قبوله لذلك حيث وضح فيها كرهه لحكم ملوك الطوائف وتفنيده لعيوبهم ، وإن كانت آراؤه السياسية لفظت الحكم الوراثى الذى كانت عليه الخلافة الأموية حيث كان يرى أن الإمامة أو الخلافة لا يتولاها إلا من هو من أهلها مستوف لشروطها ثم تكون من خلال ثلاثة سبل إما وصية من الإمام قبل موته لمن يخلفه أو من يختاره المسلمون أو من يتقدم لها ويراه المسلمون أهلاً لذلك (٥٨) ، ولعل هذا الرأى قد بدا متناقضاً مع تأييده المطلق للحكم الأموى . وقد أبدى العديد من هذه الآراء وغيرها فى

(٥٦) ابن خاقان : مطمح الأنفس ، ص ٥٥ .؛ عبد الكريم خليفة : ابن حزم ، ص ٦٣ .
(٥٧) ابن بسام : الذخيرة ، ق ١ ، جـ ١ ، ص ١٦٩ .؛ ابن سعيد : المغرب ، جـ ١ ، ص ٣٥٤ .؛ عبد الكريم خليفة : ابن حزم ، ص ٦٤ .
(٥٨) ابن حزم : الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، ، جـ ٤ ، ص ١٤٩ ـ ١٧٩ ، جـ ٥ ، ص ٥ .

كتابه " رسالة نقط العروس فى تاريخ الخلفاء " الذى رتب فيه خلفاء بنى أمية فى المشرق وفى الأندلس وكذلك خلفاء بنى العباس وغيرهم فى هذا المؤلف التاريخى .

واتجه "ابن حزم" فى كتاباته إلى الإصلاح الإجتماعى مركزاً على محاولة معالجة نفوس الناس وعقولهم وربط ذلك بآرائه السياسية حيث كان يرى أن هناك ارتباط وثيق بين الإصلاح الإجتماعى والسياسى فكلاهما مكمل للآخر ولايستقيم مجتمع صالح فى ظل حكم رجل فاسد أو العكس ، وقد برزت هذه الآراء فى طوق الحمامة ، مداواة النفوس التلخيص فى وجود التخليص ، وكذلك فى رسالته الرد على ابن النغريله التى انتقد فيها ملوك الطوائف بقوله :" اللهم نشكوا إليك تشاغل أهل الممالك من أهل ملتنا بدنياهم عن إقامة دينهم وعمارة قصور يتركونها عما قريب عن عمارة شريعتهم اللازمة لهم فى معادهم ودار قرارهم " (٥٩) . وذكر فى موضع آخر :" إن كل مدبر فى أندلسنا هذه أولها عن آخرها محارب لله تعالى ورسوله وساع فى الأرض بفساد للذين تزينه عياناً من شنهم الغارات على أموال المسلمين من الرعية التى تكون فى ملك من ضارهم وإباحتهم لجندهم قطع الطريق على الجهة التى يقضون على أهلها وضاربون للمكوس والجزية على رقاب المسلمين ومسلطون اليهود على قوارع طرق المسلمين فى أخذ الجزية والضريبة من أهل الإسلام معتذرين بضرورة لاتبيح ماحرم الله .... إلخ " (٦٠) .

ولم يخف " ابن حزم " مشاعره تجاه ملوك الطوائف كما لم يحاول مجالفة أى منهم، فقد وجه هجومه على" باديس بن حبوس " أمير غرناطة فى رسالته " الرد على ابن نغريله" وبدا من خلال ذلك مدى كرهه لأبيه الذى كان يعتبر رأس البربر الذى سجنه وهزم "المرتضى" وقتله وقضى على محاولة رجوع السلطة الأموية ، كما انتقد " باديس " لاستعانته باليهود ورفعه " يوسف بن نغريله " إلى منصب الوزير والمستشار وتركه يتحكم

(٥٩) ابن حزم : رسائله ، جـ ٣ ، الرد على ابن نغريله ، ص ٤١ .
(٦٠) نفس المصدر ، ورسالة التلخيص فى وجوه التخليص ، ص ١٧٣ .

فى رقاب المسلمين [٦١]، وأورد له الآية القرآنية " يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا اليهود والنصارى أولياء من دون الله ومن يتولاهم منكم فإنه منهم إن الله لايهدى القوم الظالمين" وقوله تعالى"يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا عدوى وعدوكم أولياء من دون الله تلقون إليهم بالمودة " [٦٢].

ولقد تعرض "ابن حزم" بسبب مثل هذه المواقف لعداء بعض ملوك الطوائف كما حدث له من " المعتضد بن عباد "حيث حرق له كتبه لتشكيكه فى خلافة " هشام المؤيد " وإعلان عدائه الصريح بهذا الموقف لابن عباد ، كما سبقت الإشارة .

على أن الخلاف الذى وقع بين " ابن عباد " و" ابن حزم " لم يكن يرجع إلى الأسباب السياسية فقط وإنما يرجع كذلك إلى وشاية بعض الفقهاء ضده حيث كان يسئ بعضهم إتساع ثقافته وعلمه وقوة حجته وتفوقه عليهم ، كما أنهم حنقوا عليه لمذهبه الظاهري المخالف لمذهبهم المالكي [٦٣] ، ولاشك أن هذه العوامل إلى جانب إعتداد "ابن حزم" بشخصيته قد جعله مستهدفاً من هذا البعض من فقهاء عصره فلقد تعرض لموقف مماثل وهو وشاية بعض الفقهاء حينما كان فى ميورقة [٦٤] لدى

(٦١) يوسف بن نغريله من الطارئين على الأندلس ، استوطن والده إسماعيل قرطبة ثم اضطر إلى تركها إبان الفتنة البربرية وانتقل إلى مالقة حيث درس الأدب العربى وعمل كاتبا لدى أبى العباس وزير حبوس بن ماكسن صاحب غرناطة ثم أصبحت شؤون الديوان فى يديه فى عهد باديس وظل يتقرب إليه حتى وطد مكانته وكان مفضلا بين اليهود الذين حزنوا على وفاته ، وخلفه فى الوزارة ابنه يوسف الذى وصل إلى هذا المنصب بالتآمر لما عرف عنه من خبث ورثه عن أبيه ، وكان من المقربين لبلكين بن زيرى ولكنه قتله بعد أن توترت العلاقات بينهما ، فثارت العامة فى قرطبة عليه وكانت عاقبته وخيمة . أنظر الأمير عبدالله الزيرى : التبيان ، ص ٤٠ ـ ٤٢ .؛ ابن حزم : رسائله ، جـ ٣ ، ص ٨ ـ ١٥ .؛ ابن بسام : الذخيرة ، ق ١ ، جـ ٢ ، ص ٧٦٦ ـ ٧٧٠ .؛ ابن سعيد : المغرب ، جـ ٢ ، ص ١١٤ ، ١١٥ .

(٦٢) ابن حزم : رسائله ، رسالة الرد على ابن نغريله ، جـ ١ ، ص ٦٧ .

(٦٣) محمد أبو زهرة : ابن حزم ، ص ٥٠ ، ٥١ .

(٦٤) ميورقة Mallorca هى جزيرة فى البحر الروم يبلغ طولها من الغرب إلى الشرق سبعين ميلا ومن الشمال إلى الجنوب خمسين ميلا ، فتحها المسلمون سنة ٢٩٠هـ ثم تغلب عليها النصارى سنة ٥٠٨هـ ثم تركوها ، واختلف عليها ولاة ابن تاشفين فتولاها محمد بن على بن غانية أنظر الحميرى: الروض المعطار ، ص ٥٦٧ ، ٥٦٨ .

" أحمد بن رشيق"(٦٥) فاضطر إلى ترك ميورقة .

ولاشك أن مثل هذه المواقف ، إلى جانب طبيعة " ابن حزم " ، قد أدت إلى خصومة بينه وبين بعض الفقهاء حيث كان يهاجمهم ويعيب عليهم تملقهم لملوك الطوائف ويكشف عيوبهم فقال فى ذلك :" فلا تغالطوا أنفسكم ولا يغرنكم الفساق المنتسبون إلى الفقه اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع المزينون لأهل الشر شرهم الناصرون لهم على فسقهم " (٦٦) . هذا بالإضافة إلى نقده الدائم لفقهاء المالكية ومناظرته لهم ومحاولة دحض أدلتهم وتوجيه الاتهامات لهم فى إطار من السخرية والتهكم ، وقد ظهر ذلك جلياً فى كتبه " الاحكام فى أصول الأحكام " و " الفصل فى الملل والأهواء والنحل " وفى بعض رسائله (٦٧) .

ومع ذلك كان " ابن حزم " فقيهاً عالماً فى آن واحد ومن الطريف أن نشير إلى أنه كان محترماً من طرف أبرز الشخصيات الثقافية والفكرية فى عصره ، وذلك على الرغم من خلافاته وكثرة جدله . فعلى سبيل المثال انتقده المؤرخ الكبير " ابن حيان " بشدة وقد وصلتنا هذه الانتقادات فى " الذخيرة " لابن بسام إلا أنه لم يتردد عن وصف هذا العالم الفريد لاجئاً فى ذلك إلى أسمى العبارات (٦٨) . وبعبارة أخرى أعترف غيره بعلمه كما اعترف هو بعلم غيره ، وذلك على الرغم من اختلافه مع عدد من معاصريه فى الرأى، وهذا أمر معقول إعتباراً للطابع الموسوعى الذى تميزت به أعماله واعتباراً للمساهمة الفريدة التى تميز بها فى جميع المجالات التى عالجها .

---

(٦٥) أحمد بن رشيق من موالى بنى شهيد ، نشأ فى مرسية ثم إنتقل إلى قرطبة وبرع فى صناعة الرسائل وكذلك فى الأدب كما تعلم الفقه والحديث ، قدمه الأمير مجاهد العامرى وولاه ميورقة فحكم حكما حسنا وجمع حوله الفقهاء والوزراء وكان من بينهم ابن حزم الذى أوى إليه ، وحدثت المناظرة بين ابن حزم وأبى الوليد الباجى فى ميورقة توفى ابن رشيق سنة ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م . أنظر: الحميدى : جذوة المقتبس ، ق ١ ، ص١٩٥ .؛ ابن الأبار : الحلة جـ ١ ، ص ١٢٨ .؛ الحموى : معجم الأدباء ، جـ ٢ ، ص ١٢٧ .

(٦٦) ابن حزم:رسالة التلخيص، جـ ١ ، ص ١٧٣ ، رسالة الأخلاق فى مداواة النفوس ، ت. الطاهر مكى ، ص٣٤ .

(٦٧) ابن حزم : رسائله ، جـ ٣ ، ص ٧٣ ومابعدها .

(٦٨) راجع الذخيرة ، ق ١ ، جـ ١ ، ص ١٦٧ .

وعلى كل حال فقد عزل " ابن حزم " نفسه فى قرية لبلة موطن آبائه واجداده حيث استقر وقام بالتدريس لتلاميذه بعيداً عن أحقاد بعض الفقهاء ، وظل ينشر علمه حتى توفى سنة ٤٥٦هـ ١٠٦٣م (٦٩) .

ب ـ الفقيه أبو إسحاق الألبيرى

ومن الفقهاء ـ وإن كان شاعراً أكثر منه فقيهاً ـ الذين كان لهم دور سياسى فى الأحداث السياسية بالأندلس الفقيه "أبو إسحاق الألبيرى" الذى برز دوره وسط ماكان يحيط غرناطة من ظروف خارجية وداخلية ، فهو " إبراهيم بن مسعود بن سعيد التجيبى" تتلمذ على يديه العديد من الفقهاء مثل الفقيه " عبدالواحد بن عيسى الهمذانى"(٧٠) وكان من أبرز أصحابه الفقيه "أبوعبدالله محمد بن أبى زمنين" (ت. ٣٩٩هـ) ، ولعل فى ذلك إشارة إلى أن " أبى إسحاق " قد ولد فى أواخر القرن الرابع الهجرى وأنه عاصر ملوك بنى زيرى فى غرناطة وإن كان تاريخ ولادته غير محدد .

تأثر " أبو إسحاق " بصاحبه الفقيه " ابن أبى زمنين " فى فقهه وزهده فسار على نمطه وروى عنه كتبه وهو فى مقتبل عمره (٧١) ، ثم عمل " أبو إسحاق " كاتباً لـ " أبى الحسن على بن توبة " (٧٢) قاضى قضاة غرناطة ، وولاه " باديس بن حبوس " قضاء غرناطة إضافة إلى إمامة المسجد الجامع ، وقد تأثر " أبو إسحاق الألبيرى " بصحبته وهجا من أجله " أبى بكر بن الحاج " لتطاوله بالهجاء على القاضى (٧٣) .

---

(٦٩) ابن بسام : الذخيرة ، ق ١ ، جـ ١ ، ص ١٦٨ .

(٧٠) عبدالواحد بن عيسى الهمذانى وكنيته أبو محمد ، من أهل غرناطة كان فقيها ومفتيا ، توفى سنة ٥٠٤هـ . أنظر ابن بشكوال : الصلة ، جـ ١ ، ص ٣٦٦ .؛ القاضى عياض : ترتيب المدارك ، جـ ٤ ، ص ٨٢٨ .؛ الضبى : بغية الملتمس ، جـ ١ ، ص ٢٧٤ .

(٧١) القاضى عياض : ترتيب المدارك ، جـ ٤ ، ص ٨٢٨ .

(٧٢) على بن محمد بن توبة يكنى أبا الحسن ، من أهالى غرناطة ومن جلة الفقهاء ، تولى القضاء وإمامة المسجد سنة ٤٤٧هـ ، وكان من الفقهاء العدل - وتنسب إليه قنطرة القاضى بقيت منها بقية على نهر حدرة والمسجد المتصل بها - مدحه الفقيه أبو إسحاق الألبيرى بشعر ورد فى ديوانه . أنظر ابن الزبير : صلة الصلة ، ت. ليفى بروفنسال ، جـ ٢ ، رقم ١٤٤ ، ص ٧٨ .؛ أبو إسحاق الألبيرى : ديوانه ، ت. محمد رضوان الداية ، بيروت سنة ١٩٧٦م ، ص ٨٣ .

(٧٣) أبو إسحاق الألبيرى : ديوانه ، ص ١٠٩ .

فقد اشتهر " أبو إسحاق الألبيرى " بقصائده وأشعاره وبخاصة تلك القصيدة السياسية التى ذاع صيتها فى غرناطة وذاع صيته بها (٧٤) ، فقد عبر من خلالها عن رفضه للأوضاع السياسية فى غرناطة التى كانت تعبيراً عن امتهان المسلمين وعلو يد اليهود عليهم ، ولم يتأثر فى موقفه بإمكانية فقده لوظيفته ككاتب أو إنحسار طموحه فى مناصب أعلى فعبر عن كرهه للسلطة الحاكمة وترك وظيفته فيها ، وحينما إزدادت وطأة " يوسف بن نغريله " على أهالى غرناطة ثار " أبو إسحاق " ولم يكتم مشاعره (٧٥) ونظم قصيدة هجا فيها اليهود وحرض " باديس " على قتل " يوسف " وتصفية أمواله والتخلص من سيطرة اليهود ، وكانت قصيدته معبرة عن مشاعر العامة فى غرناطة فأهاج المشاعر الدينية والغيرة على الإسلام ليحمس " باديس " ضد اليهود ويشجع العامة على نفض التر ب عنه بقصد التخلص من سيطرة اليهود فى غرناطة (٧٦) .

---

(٧٤) السلفى : أخبار وتراجم أندلسية ، ت. إحسان عباس ، دار الثقافة ـ لبنان ـ سنة١٩٨٥م ـ ص١٣٥

(٧٥) ابن حزم : رسائله ، جـ ١ ، ص ١٥ .

(٧٦) يرجع وجود اليهود فى غرناطة إلى أيام الفتح الإسلامى حيث عرفت بغرناطة اليهود ويذكر أن اليهود حينما دخلوا غرناطة ضموا اليهود إلى قصبتها وأصبحت سنة تتبع فى كل مدينة يفتحونها لتميزهم فى الأمور المالية ، وربما لثقافة البربر المتصلة باليهودية قبل إلمامهم بالثقافة العربية ، ومن أبرز الشخصيات اليهودية فى غرناطة إسماعيل وابنه يوسف بن نغريلة . وحين كبر نفوذ اليهود فى غرناطة إزداد طغيانهم ووصل إلى حد المجاهرة بالسخرية من القرآن الكريم ومن المسلمين . وقد ظهر يهودى آخر بعد ابن نغريله هو النايه الذى تقرب لباديس على حساب يوسف مما دعا الأخير للإستعانة بيحيى بن صمادح ودبر معه خطة للإستيلاء على غرناطة . لمزيد من التفاصيل أنظر الأمير عبدالله : التبيان ، ص ٣٤ ـ ٥٢ .؛ ابن عذارى : البيان ، جـ ٣ ، ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ .؛ ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ص ٢٣٠ .؛ المقرى : نفح الطيب ، جـ١ ، ص ٢٥٢ .؛ محمد عبدالله عنان : دول الطوائف ، ص ١٣٣ ، ١٣٤؛ محمود مكى : التشيع فى الأندلس ، المعهد المصرى للدراسات الإسلامية ـ مدريد ، م ٢، سنة ١٩٥٤م ، ص ١٢٩ .؛ عمر بنميرة : جوانب من تاريخ أهل الذمة فى الأندلس الإسلامية، كلية الآداب ، الرباط ، ص ١٨ ، ١٩ ومابعدها . ومن شعر أبى إسحاق الألبيرى فى هجاء اليهود والتحريض عليهم :

لاترفع الضغط عن رهطه	فقد كنزوا كل علق ثمين
وفرق عداهم وخذ مالهم	فأنت أحق بما يجمعون
ولاتحسبن قتلهم غدرة	بل الغدر فى تركهم يعبثون
وقد نكثوا عهدنا عندهم	فكيف تلام على الناكثين
وكيف تكون لهم ذمة	ونحن خمول وهم ظاهرون

أنظر أبو إسحاق الألبيرى : ديوانه ، ص ٩٩ .؛ ابن سعيد : المغرب ، جـ ١ ، ص ١٣٢ .؛ إميليو غرسيه : مع شعراء الأندلس والمتنبى ، ت. حسين مؤنس ، دار النهضة المصرية ١٩٥٦م ، ص٩٠

والواقع أن القصيدة كانت بالغة التأثير لما احتوته من نقد لاذع لليهود الأمر الذى أغضب " يوسف بن نغريله " فسعى إلى " باديس بن حبوس " لطرد " أبى إسحاق الألبيرى " من غرناطة (٧٧) . وقد لجأ الفقيه " أبو إسحاق " إلى جبل بالقرب من مدينة ألبيرة يسمى رابطة العقاب (٧٨) وظل فى هذا الجبل معتقلاً بعيداً عن أصحابه الذين قاطعوه خشية غضب " باديس " ووزيره " يوسف " (٧٩) ، ولقد تأثر كثيراً بموقف الفقهاء وبدا ذلك فيما ورد فى ديوانه من أشعار كقوله فيهم :" رأيت الذئب أسلم من فقيه " (٨٠) . وقد علق أحد المؤرخين على ذلك بأن الألبيرى نفسه هو واحد من هؤلاء الفقهاء المنحرفين فى ذلك العصر من الذين حذر منهم الفقيه " ابن حزم " فى قوله :" لا يغرنكم الفساق والمنتسبون إلى الفقه اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع "(٨١) ، ومع أن هذا الرأى صائب فى مجمله وباعتراف الفقيه الألبيرى نفسه وإشارته فى أكثر من مناسبة إلى انغماسه فى الترف ولعه بالشراب وفتنته بالنساء وحب المناصب واللهث وراءها إلا أنه يكفيه توبته فى شيخوخته واعترافه بأخطائه وندمه عليها (٨٢) ، ولاشك أن عودة التزمه بالتعاليم

---

(٧٧) لقد احتوت القصيدة على الكثير من الأبيات المثيرة مثل :

فعز اليهود به وانتخوا ... وتاهوا وكانوا من الأرزلين
فكم مسلم فاضل قانت ... لأرزل قرار من المشركين
وكيف تحب فراخ الزنا ... وهم يبغضون إلى العالمين

أنظر ديوان أبى إسحاق الألبيرى ، ص ٩٧ .؛ ابن سعيد : المغرب ، جـ ١ ، ص ١٣٢ .

(٧٨) رابطة العقاب : حصن قريب من ألبيرة ورد ذكره عند ابن سعيد : المغرب ، جـ٢ ، ص ١٣٢ .؛ ديوان ابن اسحاق ، ص ١٢٥ وهو يختلف عن هضبة العقاب المجاور لقلعة رباح والذى حدثت فيه موقعة العقاب الشهيرة فى عصر الموحدين .

(٧٩) ابن سعيد : المغرب ، جـ ٢ ، ص ١٣٢ .؛ السيد مصطفى غازى : أبو إسحاق الألبيرى شاعر الزهد الأندلسى فى القرن الخامس الهجرى ، مجلة كلية الآداب - جامعة الإسكندرية ، عدد٢ ، سنة ١٩٦٦م ، ص ٨٨ .

(٨٠) ومن أشعاره : ألا حيى العقاب وقاطنيه ... وقل أهلا بـه وبزائريه
حللت به ففس مابنفسى ... وأنسنى فما استوحشت فيه
وكم ذيب نجاوره ولكن ... رأيت الذئب أسلم من فقيه

أنظر : ديوان أبى إسحاق الألبيرى ، ص ٧٢ .

(٨١) ابن حزم : رسالة التلخيص فى وجوه التخليص ، جـ ١ ، ص ١٧٣ .؛ السيد مصطفى غازى: أبو إسحاق شاعر الزهد ، ص ٨٨ .

(٨٢) ابن الأبار : التكملة ، جـ ١ ، ص ١٦١ حيث أورد أشعار الندم لأبى إسحاق .

الدينية التى تربى عليها وتأثر بتوجيه بعض الفقهاء كان عاملاً فى توبته [٨٣] كما لاينبغى إغفال تحمل " الألبيرى " للمعتقل وإصراره على ذكر رأيه بشجاعة وسعيه لإثارة أهالى غرناطة ضد اليهود حيث كان له أعظم الأثر فى ثورتهم سنة ٤٥٩هـ١٠٦٦م مما كان له تأثيره على الأوضاع السياسية فى غرناطة ، فقد ثار الأهالى ضد " ابن نغريله " وطاردوه ولجأ إلى " باديس بن حبوس " الذى عجز عن حمايته حيث عثر عليه الأهالى مختبئاً فى القصر صابغاً وجهه بفحم أسود فعلقوه وصلبوه على باب غرناطة [٨٤] . وأعقب ذلك إعمال الأهالى القتل فى اليهود وتعذيبهم والاستيلاء على أموالهم ومحتويات دار " يوسف بن نغريله " التى كانت مليئة بالنفائس ، وبلغ عدد القتلى من اليهود ثلاثة آلاف وقيل أربعة آلاف ، وكان جنود غرناطة قد تعاونوا مع الأهالى فى ذلك [٨٥] وبموت " يوسف بن نغريله " إنهارت أطماع " ابن صمادح " الذى حاول هذا الوزير اليهودى أن يضرب به " ابن حبوس " ، كما أفاق " ابن حبوس " على أثر هذه الأحداث وسعى لاستعادة وادى آش من " ابن صمادح " ، ولكن " ابن صمادح " استسمحه وطلب العفو فعادت العلاقة بينهما [٨٦]

والحقيقة أن الفقيه " أبا إسحاق الألبيرى " كان واحداً من الفقهاء الذين لعبوا دوراً فعالاً فى الحياة السياسية ، وكان بهجومه على بعض ملوك الطوائف معبراً عن أنه أحد الفقهاء الذين هاجموا الحكام وناشدوا أمل الوحدة السياسية [٨٧] .

جـ- الفقيه أبو القاسم خلف بن فرج الألبيرى :

لم يكن " أبو إسحاق الألبيرى " وحده هو الفقيه الثائر على الأوضاع السياسية فى غرناطة بل شاركه فى ذلك العديد من فقهائها الذين كانوا يعبرون بمواقفهم عن مشاعر

---

(٨٣) السيد مصطفى غازى : أبو إسحاق شاعر الزهد ، ص ٩١ .
(٨٤) الأمير عبدالله : التبيان ، ص ٥٣ ، ٥٤ .؛ ابن عذارى : البيان ، جـ ٣ ، ص ٢٦٦ .؛ محمد عبدالله عنان : دول الطوائف ، ص ١٣٥ .
(٨٥) ابن بسام : الذخيرة ، ق ١ ، جـ ٢ ، ص ٧٦٩ .
(٨٦) الأمير عبدالله : التبيان ، ص ٥٧ .؛ محمد عبدالله عنان : دول الطوائف ، ص ١٣٨ .
(٨٧) ابن سعيد : المغرب ، جـ ١ ، ص ١٣٣ .

العامة ، ومن هؤلاء الفقيه " أبو القاسم خلف بن فرج الألبيرى " المعروف بالسميسر ، فقد عبرت مواقف وأشعار هذا الفقيه عن إستيائه من سياسة " باديس بن حبوس " لاتخاذه وزيراً يهودياً ثم استبدله بعد قتل العامة له بوزير نصرانى ، فكتب العديد من قصائد الهجاء وسار يلقيها على العامة فى شوارع غرناطة ، ثم فر هارباً من رجال " باديس " إلى المرية ليحتمى بحاكمها " المعتصم بن صمادح " (٨٨) . ولم يكف هذا الفقيه عن إعلان أشعاره المعادية لملوك الطوائف التى انتقدت ضعفهم وتسليمهم للنصارى التى أوردها " ابن بسام"، ويبدو أن هذا الفقيه قد عمر كثيراً ولكن لم يعثر على سنة وفاته بالتحديد(٨٩)

د ـ الفقيه أبو محمد عبدالله بن أحمد (ابن العسال)

ومن الفقهاء المعروفين بزهدهم الفقيه " أبو محمد عبدالله بن أحمد " المعروف بابن العسال (٩٠) وفى بعض المصادر ابن الغسال - وقد أوردت بعض المصادر أن إسم هذا الفقيه هو " أبو محمد عبدالله بن فرج بن غزلون اليحصبى " (٩١) . استوطن هذا الفقيه غرناطة التى وفد إليها من موطنه طليطلة حيث رحل عنها بعد ان إستولى عليها النصارى ، وقد شارك بشعره فى ركب الشعراء الذين حذروا ملوك الطوائف من الخطر

---

(٨٨) إحسان عباس : أخبار وتراجم من معجم السلفى ، ص ٨٣ .

(٨٩) من أشعار هذا الفقيه فى نقد ملوك الطوائف :

ناد الملوك وقل لهم ما الذى أحدثتم
أسلمتم الإسلام فى أثر العدا وقعدتم
= وجب القيام عليكم إذ بالنصارى قمتم
لاتنكروا شق العصا فعصا النبى شققتم

أنظر ابن بسام : الذخيرة ، ق ١ ، جـ ٢ ، ص ٨٨٢ .؛ المقرى : نفح الطيب ، جـ ٤ ، ص ٢٧٣ .؛ أمين توفيق الطيبى : دراسات وبحوث فى تاريخ المغرب والأندلس ، الدار العربية للكتاب ، ليبياوتونس ، سنة ١٩٨٤م ، ١٨٤ وقد كتب شعراً فى الأمير عبدالله بن بلقين حينما بدأ يحصن نفسه قال فيه :

يبنى على نفسه سفاها كأنه دودة الحرير

أنظر ابن بسام : الذخيرة ، ق ١ ، جـ ٢ ، ص ٨٨٧ .؛ المقرى : نفح الطيب ، جـ ٥ ، ص ٢٥٥ وقد اعتبر " سعد إسماعيل شلبى " أن أبا إسحاق الألبيرى والسميسر شخصية واحدة على الرغم من أن الألبيرى قد توفى سنة ٤٥٩هـ أى قبل أن يولى باديس بن حبوس الوزير النصرانى فى أعقاب مقتل الوزير اليهودى ابن نغريله . أنظر لهذا المؤلف : البيئة الأندلسية وأثرها فى الشعر فى عصر ملوك الطوائف ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، ١٩٧٨م ، ص ٢٧٠ .

(٩٠) إحسان عباس : تراجم إسلامية وأندلسية مستخرجة من معجم السلفى ، ص ٧٠ .

(٩١) ابن بشكوال : الصلة ، جـ ٢ ، ص ٢٧٦ .؛ السيوطى : بغية الوعاه ، جـ ٢ ، ص ٥٢ .

المتربص بهم والمتمثل فى النصارى بعد سقوط طليطلة [٩٢] ، كما كانت له مشاركاته السياسية قبل ذلك حيث كتب شعراً حينما أخذت مدينة بربشتر سنة ٤٥٦هـ١٠٦٤م معبراً عن تأثره بما حدث لها . كما كان لهذا الفقيه دور حضارى واجتماعى سيشار إليهما بعد ذلك ، وكانت وفاته سنة ٤٨٧هـ١٠٩٤م عن عمر يزيد على الثمانين عاماً [٩٣] .

(٩٢) من أشعاره فى ذلك : يـاأهل أندلس حثوا مطيكم فما المقام بـهـا إلا مـن الـغـلـط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط
أنظر ابن سعيد : المغرب ، جـ ٢ ، ص ٢١ .؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ ٥ ، ص ٢٨ .؛ محمد بن عبدالجليل : كيف ساعد الفقهاء يوسف بن تاشفين على خلع ملوك الطوائف ، أعمال الملتقى الأسبانى الرابع ، المعهد الأسبانى التونسى ، ١٩٨٣م ، ص ١٠ .
(٩٣) ابن بشكوال : الصلة ، جـ ٢ ، ص ٢٧٦ .؛ ابن سعيد : المغرب ، جـ ٢ ، ص ٢١ .؛ السيوطى : بغية الوعاه ، جـ ٢ ، ص٥٢ .؛ المقرى : نفح الطيب ، جـ ٤ ، ص ١٩٨ ، ٢١٦ و جـ٥ ، ص ٢٧٢ .؛ إحسان عباس : تراجم مستخرجة من معجم السلفى ، ص ٧٠ ، ٧١ .

جهود فقهاء الأندلس فى تحقيق الوحدة السياسية والتصدى للمد النصرانى

بدأت بواكير الوحدة السياسية على يد القاضى " أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور"(٣٦٤هـ-٤٣٥هـ) الذى دعا إلى الوحدة السياسية تحت لواء الدولة الأموية حتى فشل فى تحقيق ذلك ، وأعلن إلغاء الخلافة سنة ٤٢٢هـ ١٠٣٠م ، وأنشأ حكم الجماعة الذى ترأسه حتى سنة ٤٣٥هـ١٠٤٣م (٩٤) .

أ- الفقيه أبو عمر يوسف بن عبدالبر القرطبى

كان للفقيه " أبو عمر يوسف بن عبدالبر بن عاصم القرطبى"(٣٦٨-٤٦٣هـ /٩٧٨-١٠٧٠م) أعظم الأثر فى إثارة حماس ولده تجاه الوحدة السياسية ولم يكتف بهذا الدور وإنما كانت له أيادى بيضاء فى هذا الشأن ، فقد أشار فى كتبه إلى موقفه من ملوك الطوائف :" فسار كل من غلب منها - الأندلس - على موضع ملكه واستبعد أهله، وكثر فيها الأمراء فضعفوا وصاروا خولاً - أى خداماً - للنصارى " (٩٥) ، كما احتوى كتابه " بهجة المجالس " عبارات انتقد فيها لملوك الطوائف ذكر فيه :" الاستبداد مذموم عند جماعة الحكماء ، والمشورة محمودة عند غاية العلماء " (٩٦) ، واحتوى هذا الكتاب على جوانب تمس الواقع السياسى كحديثه عن السلطان والسياسة وكذلك عن الظلم والجور وعن الغى والحسد وعن الحق والباطل (٩٧) .

---

(٩٤) عبدالرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى من الفتح الأندلسى حتى سقوط غرناطة ، دار القلم - دمشق - ط- ٣ ، ١٩٨٧م ، ص ٣٤٥ .
(٩٥) ليث سعود جاسم : ابن عبدالبر وجهوده فى التاريخ ، ص ٦٩ .
(٩٦) نفس المرجع ، ص ٧٠ .
(٩٧) نفس المرجع ، ص ١٦٨ -١٧٧ .

ولم تقتصر جهود هذا الفقيه فى الدعوة إلى الوحدة على مؤلفاته فقط بل دعا إليها فى تنقلاته ورحلاته بعد رحيله عن قرطبة إبان الفتنة ثم مغادرته إشبيلية بعد إسداء النصح للقاضى " أبى القاسم بن عباد " والذى لم يستجب له ، واستقر به المقام فى دانية منذ سنة ٤٣٠هـ١٠٣٨م وحتى وفاة " مجاهد العامرى " سنة ٤٣٣هـ١٠٤١م ، ثم تركها متجهاً إلى بطليوس حيث أولاه حاكمها " المظفر بن الأفطس " عناية خاصة فأهداه كتابه " بهجة المجالس " ، ثم رحل إلى بلنسية فى كنف " عبدالعزيز بن أبى عامر " . وظل هذا الفقيه يتردد بين بلنسية وشاطبة طلباً للعلم حتى اضطر إلى هجر بلنسية بعد وفاة "عبدالعزيز" وتولى إبنه " عبدالملك " الذى لم يكن على قدر أبيه فى موقفه من العلماء فاستقر فى شاطبة حتى وافته المنية سنة ٤٦٣هـ١٠٧١م عن عمر يقارب الخمسة والتسعين عاماً (٩٨)

ب ـ الفقيه أبو محمد عبدالله بن يوسف بن عبدالبر

ومن الفقهاء الداعين إلى الوحدة السياسية الفقيه " أبو محمد عبدالله بن يوسف بن عبدالبر " (ت. ٤٥٠هـ١٠٥٧م)(٩٩) ، اشتهر برسائله الداعية إلى الإصلاح ، فكتب رسالة على لسان أهل بربشتر الذين كانوا يستنجدون بأهل الأندلس عامة وأمراء الطوائف خاصة ، ووصف فيها هول الخطوب التى وقعت على بربشتر وينبه الغافل إلى الخطر الذى يحوم حول الأندلس إلى إستفحاله إذا استمر أمراء الطوائف على سياستهم من الصراعات والتمزق والفرقة ودفع الإتاوات للنصارى (١٠٠) .

---

(٩٨) القاضى عياض : ترتيب المدارك ، جـ ٤ ، ص ٨٠٨ .

(٩٩) عبدالله بن أبى عمر يوسف بن عبدالبر وكنيته أبو محمد و أصله من قرطبة ، سكن مع أبيه فى بلنسية ، وهو من أهل الأدب البارع والبلاغة الرائعة والتقدم فى العلم ، مات قبل أبيه فى دانية سنة ٤٥٠هـ ، وقد دون الناس رسائله . أنظر الحميدى : جذوة المقتبس ، ق ٢ ، ص ٤٢٣ .؛ الضبى : بغية الملتمس ، جـ ٢ ، ص ٤٥٨ .؛ ابن بسام : الذخيرة ، ق ٣ ، جـ ١ ، ص ١٧٣ .؛ ابن بشكوال : الصلة ، جـ ١ ، ص ٢٧٠ .

(١٠٠) ليث سعود جاسم : ابن عبدالبر الأندلسى ، ص ٦٨ .

كما رد على رسالة أحد المصلحين ينوه فيها إلى ضرورة الوحدة السياسية :" ورد كتابك الذى يحض على مأأمر به الله تعالى من الألفة واتفاق الكلمة وإطفاء نار الفتنة وجمع شمل الأمة فى هذه الجزيرة " (١٠١) .

جـ- الفقيه أبو الوليد الباجى :

هو "أبو الوليد الباجى سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث التجيبى " (٤٠٣ - ٤٧٤هـ/١٠١١ - ١٠٨٢م) ، ويعتبر من أكبر دعاة الوحدة السياسية فى الأندلس . كان فقيهاً ومحدثاً ومفسراً وأديباً ، ويرجع أصله إلى بطليوس وإن كان قد عاش فى باجة رحل إلى الحجاز حوالى ثلاثة أعوام فسمع من علمائه وتلقى العلم على يد بعضهم فكان ملازماً لـ " أبى ذر الهروى " ، ثم رحل إلى بغداد حيث واصل تلقى العلم فيها لأعوام ثلاث أخرى ثم رحل إلى الشام وإلى الموصل فى رحلات أمضى فيها ثلاثة عشر عاماً رجع بعدها إلى الأندلس بعد أن أصاب فى كثير من جوانب العلم فبرز بين فقهائها (١٠٢) .

وبدت أول جهود " الباجى " فى الدعوة إلى الإصلاح ، ووصف ابن بسام موقف الحكام من هذه الدعوة بقوله :" بيد أنه كلما وفد على ملك منهم فى ظاهر أمره لقيه بالترحيب ، وأجزل حظه بالتأنس والتقريب وهو فى الباطن يجهل نزعته ويستثقل طلعته وما كان أفطن الفقيه رحمه الله لأمورهم وعلمه بتدبيرهم لكنه كان يرجو حالاً تثوب ومذنباً يتوب " (١٠٣) .

---

(١٠١) ابن بسام : الذخيرة ، ق ٣ ، جـ ١ ، ص ١٧٣ .

(١٠٢) ابن بسام : الذخيرة ، ق ٢ ، جـ١ ، ص ٩٦ .؛ ابن بشكوال : الصلة ، جـ١ ، ص ١٩٧ – ١٩٩ .؛ ابن سعيد : المغرب ، جـ١ ، ص ٤٠٤ ، ٤٠٥ .؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ٢ ، ص ٤٠٨ .؛ ابن فرحون : الديباج المذهب ، جـ١ ، ص ٣٧٧ – ٣٨٥ .؛ النباهى : قضاة الأندلس ، ص ٩٥ .؛ ابن كثير : البداية والنهاية فى التاريخ القاهرة ب . ت ، جـ١٢ ، ص ١٢٢ .؛ ابن عماد الحنبلى : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، جـ٣ ، بيروت المكتب التجارى ، ب . ت ، ص ٣٤٤ ، ٣٤٥ .؛ الذهبى : تذكرة الحفاظ ، جـ٣ ، ص ١١٧٨ – ١١٨١ .؛ الحموى : معجم الأدباء ، جـ ٤ ، ص ٢٥١ - ٢٥٣ .؛

(١٠٣) ابن بسام : الذخيرة ، ق ٢ ، جـ ١ ، ص ٩٦ .

وكان من أبرز الجوانب التى ركز عليها " أبو الوليد الباجى " فى دعوته الإصلاحية دعوته للوحدة السياسية التى حمل لواء الدعوة لها منذ عودته من رحلته إلى المشرق سنة ٤٤٠هـ١٠٤٨م ، فقام بالتجوال فى مدن الأندلس داعياً لها ، وكثف جهوده حولها بعد نكبة بربشتر التى استولى عليها النصارى مع حصن قلمرية سنة ٤٥٦هـ ١٠٦٤ موشاركه فى ذلك الفقيه " أبو حفص عمر بن حسن الهوزنى " وغيره من الفقهاء ، وكان لجهودهم أثر فى عودة بربشتر بعد سقوطها بعام واحد (١٠٤) .

وتوجه الفقيه " أبو الوليد الباجى " إلى بطليوس حيث تولى القضاء بها وأيد دعوة صاحبها " المتوكل بن الأفطس " للوحدة السياسية (١٠٥) ، ثم تركها " الباجى " ليطوف ببلنسية ومرسية ودانية وسرقسطة وميورقة داعياً المسلمين فى مساجدها إلى السعى لتحقيق الوحدة السياسية . وقد أورد ابن بسام رسالة أرسلها " مجاهد العامرى " صاحب دانية إلى " المظفر بن الأفطس " فى بطليوس يذكره فيها بأنهم جزء من الأندلس تجمعهم وحدة الجزيرة ووحدة المذهب ، وأشار إليه فى هذه الرسالة بأن " أبى الوليد الباجى " يمكث فى دانية مشاوراً للأحكام (١٠٦) ، ولعل ماورد فى هذه الرسالة يوضح أثر دعوة " الباجى "على" مجاهد العامرى " وأنها قد ارتكزت على الوحدة المذهبية إلى جانب الوحدة السياسية .

(١٠٤) ابن بسام : الذخيرة:ق ٣، جـ١،ص ١٧٩وما بعدها؛ ليث سعود جاسم: ابن عبدالبر الأندلسى ، ص ٧٣ ، ٧٤ .
(١٠٥) عبدالرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى ، ص ٣٤٠ .
(١٠٦) الذخيرة ، ق ٢ ، جـ ١ ، ص ٩٧ .

سقوط طليطلة وأثره على الدعوة للوحدة السياسية

كان لحادث سقوط طليطلة فى يد"ألفونسو السادس"في ٤٧٨هـ١٠٩٥م أثر بالغ فى الأندلس حيث بدت الدعوة للوحدة السياسية والنهوض لإنقاذ الأندلس من الضياع تنشط فى الممالك الإسلامية . وكثرت نتيجة لذلك اتهامات ملوك الطوائف بالضعف والخضوع لنفوذ النصارى وتمكينهم من بلاد المسلمين ، وكان من أمثلة هؤلاء الحكام الضعفاء " ابن رزين " صاحب إمارة السهلة الذى أرسل إلى "الفونسو السادس" يهنئه بإستيلائه على طليطلة وتقدم له الهدايا الثمينة فرد له " ألفونسو" هديته بإرسال قرد كمكافأة وهدية فأبدى " ابن رزين " إفتخاره بهذه الهدية أمام كل ملوك الطوائف (١٠٧) .

وقد شهدت هذه الفترة نشاطاً واضحاً لما سمى بحركة الاسترداد الأسبانى حيث استطاع النصارى الضغط على المسلمين بشتى الطرق ، فقام " ألفونسو السادس " بفرض جزية على معظم ملوك الطوائف بما فيهم " المعتمد بن عباد " صاحب إشبيلية الذى كان يعد من أقوى ملوك الطوائف فى عهده ، بل إن الأمر قد وصل إلى حد أن اليهودى " ابن شاليب " الذى أرسله " ألفونسو " لأخذ الجزية من " ابن عباد " حين ضاق به الفونسو بسبب إرساله الجزية مع وجهاء من قومه دون تسليمها له أقسم أنه لن يأخذ الجزية بعد هذا العام إلا أجفان البلاد ورد المال إلى " المعتمد " مما أدى إلى أن يأمر" المعتمد " رجاله بالقبض على هذا اليهودى وقتله وأسر أصحابه النصارى (١٠٨) .

على أن الحميرى قد ذكر رواية أخرى أشار فيها إلى أن " المعتمد بن عباد " حين تأخر عن دفع الجزية لـ " ألفونسو " أرسل إليه الأخير " ابن شاليب " اليهودى ليطلب منه التنازل عن بعض الحصون إضافة إلى الجزية وكذلك السماح لزوجة " ألفونسو " بدخول

---

(١٠٧) ابن عذارى : البيان ، جـ ٣ ، ص ٣١١ .

(١٠٨) مؤلف مجهول : الحلل الموشية ، ص ٢٥ .؛ المقرى : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٥٦٩ . وردت هذه العبارة فى الحلل الموشيه ويبدو أنه قصد إعتصار خيرات البلاد .

جامع قرطبة لتلد فيه حسب إشارة الأساقفة ، فلما رفض " ابن عباد " ذلك أغلظ له اليهودى فى القول وأهانه فما كان من " المعتمد " إلا أن ضربه بمحبرة كانت فى يده وأمر بصلبه (١٠٩) .

وكان من نتائج تصرف " المعتمد بن عباد " مع رسول " ألفونسو " أن أقسم الأخير على غزو إشبيلية ومحاصرته فى قصره ، وجهز لهذا الغرض جيشين جعل أحد قواده على رأس أحدهما ودعاه لأن يسير تجاه كورة باجة للإغارة على المناطق الموجودة فى غرب الأندلس حتى يصل إلى إشبيلية ، وقاد هو الجيش الآخر للإتجاه صوب إشبيلية مباشرة . وبالفعل إتجهت الجيوش إلى إشبيلية بعد أن عاثت فى غرب الأندلس فساداً ونهباً وسلباً وتخريباً ، والتقى الجيشان عند النهر الأعظم قبالة قصر " ابن عباد " (١١٠) ، وأرسل إليه " ألفونسو " من موقعه رسائل تتضمن الإهانة والتهديد والوعيد (١١١) .

على أن " المعتمد بن عباد " كان قد استشار الفقهاء فى حكم قتله لـ " ابن شاليب" اليهودى فوافقوه على ذلك وفى مقدمتهم الفقيه القرطبى " محمد بن الطلاع"(١١٢) وكانت فتوى " ابن الطلاع " تعبيراً حقيقياً عن رغبة الفقهاء والعامة فى فى توحيد جهود المسلمين ومقاومة دور النصارى .

وكان الفقيه " أبو حفص عمر بن حسن الهوزنى " (٣٩٣ - ٤٦٠هـ/١٠٠١ -١٠٦٧م) قد سبق "ابن الطلاع" فى محاولة إسداء النصح لـ "ابن عباد "وحثه على الجهاد ضد النصارى

---

(١٠٩) الروض المعطار ، ص ٢٨٨ . وقد أشارت المصادر إلى أن ألفونسو قد ذكر لسفير المعتمد "كيف أترك قوما مجانين تسمى كل واحد منهم بإسم خلفائهم وملوكهم وأمرائهم كالمعتمد والمعتضد والمعتصم والمتوكل والمستعين والمقتدر والمأمون وكل واحد منهم لايستطيع الدفاع عن نفسه ولاعن رعيته أو يرفع عنهم ضيما ولاحيفا " . أنظر ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ، ص١٠٠ .؛ عبادة كحيلة : أندلسيات ، القاهرة ١٩٨٩م ، ص ١٤٩ .

(١١٠) ابن عذارى : البيان ن جـ ٤ ، ص ١٣١ .

(١١١) المقرى : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص٥٦٩ .؛ محمد ماهر حمادة : الوثائق السياسية والإدارية فى الأندلس وشمال إفريقيا ، بيروت ، سنة ١٩٨٠م ، ص ٢٥٠ ـ ٢٥٢ وغيرها .

(١١٢) السلاوى الناصرى : الإستقصا ، ت. جعفر الناصرى ومحمد الناصرى ، الدار البيضاء ١٩٥٤م، جـ٢، ص٣٥ .؛ الحميرى : الروض المعطار ، ص ٢٨٨ .؛ المقرى : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٥٢٥ .

عقب نكبة بربشتر ولكن "المعتضد بن عباد "لم يستجب لنصحه بل وتخلص منه بشكل قاسى (١١٣) .

وكان من بين الفقهاء الداعين ل لوحدة السياسية الفقيه " محمد بن أحمد بن محمد بن حسن بن إسحاق بن عبدالله بن إسحاق بن مهلب بن جعفر " (ت. ٤٥٠هـ -١٠٥٧م) الذى حاول أن يصلح بين ملوك الطوائف أملاً فى جمع كلمتهم وبخاصة أنه كان من بيت وزارة وكانت له عندهم حظوة استغلها فى دعوته (١١٤) .

وكان " المعتمد بن عباد " قد ادرك أن نوايا " ألفونسو السادس " ليست قاصرة على الإستيلاء على أملاكه أو حتى إشبيلية وحدها بل تتطلع إلى الأندلس بأسرها (١١٥) وقد أشار عليه خاصته أن يستخدم أسلوب التفاهم ولكنه رفض ذلك قائلاً :" الملك العقيم والسيف لايجتمعان فى غمد واحد " (١١٦) ، وتطلع إلى فكرة الاستنجاد بالمرابطين حتى ولو أدى الأمر للخضوع لهم قائلاً :" رعى الجمال خير من رعى الخنازير " (١١٧) . وحين أبدى ابنه " الرشيد " معارضة لرأى أبيه فى خشيته من ضياع الملك فى إستدعاء المرابطين قال له أبوه :" لأن أموت راعياً بالمغرب خير عندى من أرى الأندلس دار كفر فتكون اللعنة على من المسلمين أبد الدهر" فأذعن " الرشيد " لرأى أبيه (١١٨) .

أما عن موقف الفقهاء تجاه موقف " المعتمد بن عباد " فقد أورد ابن خلكان قولهم فى إجتماع عام :" إن هذه مدن الإسلام قد تغلب عليها الفرنج وملوكها مشتغلون بمقاتلة

---

(١١٣) ابن بسام : الذخيرة ، ق ٢ ، جـ ١ ، ص ٨٤ .؛ المقرى : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٣٠١ .؛ سحر سالم : تاريخ مدينة بطليوس ، جـ ٢ ، ص ٣٥ ، وقد سبقت الإشارة إلى هذا الفقيه فى الفصل الأول .

(١١٤) ابن الأبار : التكملة ، جـ ١ ، ص ٣٩٠ .؛ عبدالرحمن الحجى : التاريخ الأندلسى ، ص٣٤٩ .

(١١٥) حمدى عبدالمنعم حسنين : تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٥٣ .

(١١٦) مؤلف مجهول : الحلل الموشية ، ص ٢٥ .؛ الحميرى : الروض المعطار ، ص ٢٨٨ .؛ السيد عبدالعزيز سالم : تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى ، الإسكندرية ب. ت. ، ص ٦٣٤ .

(١١٧) مؤلف مجهول : الحلل الموشية ، ص ٢٧ ، ٢٨ .؛ الحميرى : الروض المعطار ، ص ٢٨٨ .؛ المقرى : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٥٢٦ .؛ عبدالوهاب عزام : المعتمد بن عباد الملك الشجاع الشاعر ، دار المعارف ، القاهرة ، ب. ت. ، ص ٣٦ .

(١١٨) مؤلف مجهول : الحلل الموشية ، ص ٢٧ ، ٢٨ .؛ المقرى : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٥٢٦ .؛ محمد ماهر حمادة : الوثائق السياسية ، ص ٢٥٣ .

بعضهم بعضا ، وإن إستمر الحال ملك الفرنج جميع البلاد " [١١٩] . واستشار الفقهاء قاضى إشبيلية " عبيدالله بن أدهم " فأشار عليهم بالاستنجاد بالمرابطين ، وكان فريق منهم يرى الاستعانة بالهلاليين ولكن الفقيه " ابن أدهم " فضل المرابطين الذين قامت دولتهم على أكتاف الفقهاء ، وكانت رسالتهم هى الجهاد من أجل نشر الإسلام بين قبائل البربر ، كما كان رئيسهم " يوسف بن تاشفين " لايبرم أمراً إلا بمشورة الفقهاء علاوة على مااتصف به فى حكمه من العدل والحكمة والقوة التى كانت تمكنه من صد النصارى والدفاع عن الأندلس والمحافظة على الأراضى الإسلامية [١٢٠] . وقد حضر "المعتمد بن عباد" إجتماع الفقهاء [١٢١] وبادر بمكاتبة أمير المرابطين " يوسف بن تاشفين" طالباً منه المساعدة والنجدة ، وقد بعث رسالته هذه مع قاضيه " ابن أدهم " الذى إنضم إليه فقيهين نيابة عن حاكمى بطليوس وغرناطة اللذين أيدا فكرة " ابن عباد " فكان قاضى بطليوس هو " إسحاق بن مقانا " [١٢٢] أما قاضى غرناطة فكان " أبو جعفر القليعى"[١٢٣] كما أرسل " ابن عباد " وزيره " أبا بكر بن زيدون " ، وأسند إلى القضاة مايليق بهم من وعظ " ابن تاشفين " وترغيبه فى الجهاد وإلى الوزير مايقتضيه الأمر من إبرام للعقود [١٢٤] وكان إختيار الفقهاء فى هذا الوفد دليلاً على أهمية دورهم ومشاركاتهم فى الحياة السياسية فى الأندلس .

---

(١١٩) وفيات الأعيان ، جـ ٥ ، ص ٢٨ .

(١٢٠) مؤلف مجهول: الحلل الموشيه،ص ٣٣ .؛ محمد بن عبدالجليل : كيف ساعد الفقهاء يوسف بن تاشفين، ص١٣

(١٢١) مؤلف مجهول : الحلل الموشية ، ص ٣٣ .؛ المقرى : نفح الطيب ، جـ ٦ ، ص ١٤٠ .؛ حمدى عبدالمنعم حسنين : تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٥٥ .

(١٢٢) إسحاق بن مقانا لم نعثر له على ترجمة فى التراجم المتاحة بين أيدينا .

(١٢٣) أبو جعفر القليعى هو أحمد بن خلف بن عبدالملك بن غالب الغسانى من أهل غرناطة ، سمع من بعض الفقهاء مثل أبى زكريا القليعى وأبى القطان وابن عتاب وغيرهم ، وكان صدوقا أخذ الناس عنه ، توفى سنة ٤٩٨هـ . أنظر ابن بشكوال : الصلة ، جـ١ ، ص ٧٥ .؛ الأمير عبدالله : التبيان ، ص ١١٩ .؛ محمد عبدالوهاب خلاف : غرناطة فى عهد ملوك بنى زيرى ، رسالة ماجستير- كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، سنة ١٩٧١م ، ص ١٣٢ .

(١٢٤) المقرى : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٥٢٦ .

وكانت إستجابة " يوسف بن تاشفين " تأكيداً لنجاح الفقهاء فى مهمتهم ومدى تقدير زعيم المرابطين لهم ، ويبدو أن " ابن عباد " كان متلهفاً لحضور زعيم المرابطين إلى الأندلس حتى أنه استجاب لمطلبه سريعاً وتخلى له عن الجزيرة الخضراء حيث جمع الفقهاء والقضاه وكتب عقداً وهب بمقتضاه هذه الجزيرة لـ " ابن تاشفين " وأرسل إليه هذا العقد كما أمر ابنه " الراضى " بإخلاء الجزيرة (١٢٥) .

ولم تقتصر الدعوة للوحدة السياسية على فقهاء الأندلس وحدهم بل تركت صداها إلى الفقهاء خارجها كتعبير عن التفاعل والتجاوب بين فقهاء المسلمين جميعهم ، ولعل من أبرز هؤلاء الفقيه " أبو بكر الطرطوشى " (٤٥١ ـ ٥٢٠هـ ١٠٥٩ ـ١١٢٧م) (١٢٦) الذى كان مقيماً بمصر واستفتاه زعيم المرابطين " يوسف بن تاشفين " فى مسألة عبور إلى الأندلس والقضاء على ملوك الطوائف فأفتاه بذلك باعتبارهم خارجين عن أحكام الشريعة الإسلامية متفقاً فى ذلك مع فقهاء المغرب والأندلس قاطبة (١٢٧) .

ولم يقف دور الفقيه " أبو بكر الطرطوشى " عند هذا الحد ، وهو الذى عرف بمشاركاته السياسية ووعظ الحكام فى سبيل مصلحة أمة الإسلام ، بل تعداه إلى مواصلة إسداء النصح إلى أمير المسلمين " يوسف بن تاشفين " بعد أن حكم الأندلس حثه من خلاله على العمل لصالح الرعية وأن يسوس الناس بالعدل مذكراً إياه بالكثير من الآيات القرآنية

---

(١٢٥) مؤلف مجهول : الحلل الموشية ، ص ٣٣ .

(١٢٦) أبو بكر الطرطوشى هو محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب الفهرى المعروف بالطرطوشى كما عرف بابن أبى رندقة ولكن لاتعرف أسباب إطلاقها ، ويرجع نسبه إلى أصل عربى ينتمى لقريش ، تتلمذ على يد الفقيه أبى الوليد الباجى فى سرقسطة إبان عهد المقتدر بن هود ، غادر الأندلس وهو فى السادسة والعشرين من العمر ليؤدى فريضة الحج ثم إنتقل من مكة إلى بغداد والبصرة وبيت المقدس والإسكندرية ، والتقى مع الإمام أبى حامد الغزالى واستفاد منه ، ترك العديد من المؤلفات مثل كتاب الفتن وكتاب أصول الفقه وكتاب سراج الملوك وكتاب زاد المسافر وكتب أخرى كثيرة ، وتتلمذ على يديه العديد من العلماء مثل ابن عربى والمهدى بن تومرت ، توفى سنة ٥٢٠هـ . أنظر الطرطوشى : مقدمة الحوادث والبدع ، ص ١١ ـ ٣٠ .؛ ابن بشكوال : الصلة ، جـ ٢ ، ص ٥٤٥ .؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ ٤ ، ص ٢٦٢ .؛ ابن فرحون : الديباج جـ ٢،ص ٢٤٤ .؛ الزركلى: الأعلام ، جـ ٧ ، ص١٣٣ .؛ جمال الدين الشيال : الطرطوشى العالم الزاهد الثائر دار الكتاب العربى ، سلسلة أعلام العرب ،القاهرة،سنة١٩٦٨م ، ص ٧٤ .؛ محمد عبدالله عنان : تراجم إسلامية ص ٢٩٠ ـ ٢٩٧ .

(١٢٧) محمد عبدالله عنان : نفسه .

والأحاديث النبوية وسير الخلفاء ، كما أوصاه بتلميذه " أبو بكر بن العربى"[١٢٨] الذى قام بتسليم الرسالة إليه ، وقد ورد نص هذه الرسالة فى مخطوطة مفاخر البربر لمؤلف مجهول[١٢٩] .

وقد شارك الفقيه " أبو بكر الطرطوشى " فى الحياة السياسية من خلال ماكتبه فى كتابه سراج الملوك الذى احتوى على آرائه السياسية والتى دعمها بالأدلة من القرآن والسنة ، ولم تكن قاصرة على مجرد إطار نظرى بل كانت متأثرة بما عاصره من ضعف ملوك الطوائف فأرجع أسباب ضعفهم إلى زيادة الإنفاق على الجيوش ثم الشعراء والجوارى وهى أمور دعتهم إلى زيادة جمع الأموال وإرهاق الرعية ، وحاول فى هذا الكتاب - المتأثر بالواقع السياسى - أن يضع أسساً تحدد علاقة الحاكم بالمحكوم ووجوب إلتزام الحكام بالعدل وغيره من الخصال الحميدة ، ثم تحدث عن الوزراء وكيفية اختيارهم وصفاتهم وآدابهم ، كما تطرق إلى علاقة الحاكم بالجند وأهل الذمة وغير ذلك[١٣٠] .

كما أرسل أمير المسلمين " يوسف بن تاشفين " رسالة يستفتى فيها الفقيه الأندلسى "أبو بكر بن عربى " الذى كان موجوداً فى هذا الوقت فى بغداد فأرسل إليه هذا الفقيه وصفاً دقيقاً لأحوال ملوك الطوائف ومدى ضعفهم وتسليمهم للنصارى وسوء حالة الأندلس على أيديهم ، وشاركه الإمام " الغزالى " فى إرسال الفتوى لـ" ابن تاشفين" بجواز ضم الأندلس تحت إمرته[١٣١] .

---

(١٢٨) أبو بكر بن العربى هو محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالله بن أحمد بن العربى المعافرى ، من أهل إشبيلية ، كانت له رحلة مع أبيه إلى المشرق التقى فيها بالطرطوشى وتفقه عنده ثم رجع إلى الأندلس سنة ٤٩٣هـ وعين قاضيا فى إشبيلية حتى توفى سنة ٥٤٣هـ وهو الذى دعا أهل إشبيليه إلى التبرع بفئ أضحياتهم فى عيد الأضحى للانتفاع بأثمانها فى بناء سور إشبيليه . أنظر ابن بشكوال : الصلة ، جـ ٢ ، ص ٥٥٨ .؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، جـ ٤ ، ص ٥٩٦ . ؛ النباهى : قضاة الأندلس ، ١٠٥ .؛ ابن فرحون : الديباج ، جـ ٢ ، ص ٢٥٢ .؛

(١٢٩) ابن خير الإشبيلى : فهرسة مارواه عن شيوخه ، نشر فرنسشكة قدارة زيدين ، خليان روبارة طرغوه ، دار الآفاق الجديدة،طـ ٢ ، بيروت، سنة ١٩٧٩م ، ص ٢٩٩ .؛ الطرطوشى : الحوادث والبدع ، ص ٢٠ .؛ المقرى : أزهار الرياض ، جـ ٣ ، ص ١٦٢ و جـ ٥ ، ص ٣٢٤ .

(١٣٠) الطرطوشى : سراج الملوك ، ص ٦٥ - ٧٦ .؛ محمد عبدالله عنان : تراجم إسلامية ، ص ٢٨٩ - ٢٩٦ .

(١٣١) محمد عبدالله عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص ٤٢ ، ٤٣ .

وبشكل عام فإن عوامل عديدة قد ساهمت فى هذا التغيير الجذرى فى موقف علماء الأندلس بعد سقوط طليطلة أولها أن مساندة ملوك الطوائف لم تعد ممكنة وذلك لأنهم لم يستطيعوا الترفع عن خصوماتهم الدائمة التى جعلتهم يفشلون فى تشكيل جبهة موحدة لمواجهة التقدم العسكرى النصرانى داخل الأراضى الأندلسية . فبعد إحتلال "ألفونسو السادس " لطليطلة سنة ٤٧٨هـ١٠٨٥م واتخاذه قرار استرداد مابقى من أراضى الأندلس أصبح وجود الفقهاء والإسلام فى الأندلس مهدداً بالإنقراض . والأمر الثانى هو أن أهل الأندلس أصبحوا معارضين لملوك الطوائف علانية ، وكان العلماء الأندلسيون يمثلون هذا الاتجاه الجديد إعتباراً لجذورهم الاجتماعية والثقافية التى كانت ترتبط إرتباطاً مباشراً بالعامة والطبقة الوسطى الأندلسية فى الغالب .

ولهذا كان دور الفقهاء حاسماً فى مواجهة تطور حركة الاسترداد الأسبانى للأندلس ، فلقد لعب العلماء دوراً هاماً فى إقناع بعض ملوك الطوائف بضرورة إستنجادهم بـ " يوسف بن تاشفين " أمير المرابطين لمواجهة سياسة " ألفونسو السادس " التوسعية خصوصاً بعد أن أعلن " ألفونسو " نيته باسترجاع الأندلس كلها . وقد أشار الفقهاء إلى أن " يوسف بن تاشفين " أصبح يشكل الإختيار الوحيد لإنقاذ الأندلس وأن أى فشل فى البحث عن مساعدته سوف يؤدى حتماً إلى ضياعها نهائياً . ولعل من أهم الأسباب التى دفعت "ألفونسو السادس " إلى إعلانه إسترداد جميع أراضى الأندلس أنه لم يكن يظن أن بعض ملوك الطوائف قادرون على إتخاذ مثل هذه المبادرة الخطيرة ، وقد ساهم تعسف " ألفونسو " المتزايد فى قيام الفقهاء بدور هام فى إقناع بعض ملوك الطوائف باللجوء إلى الاستنجاد بـ " يوسف بن تاشفين " وهو ماأكده وجود الفقهاء فى الوفد الذى أرسل لهذه المهمة .

دور الفقهاء فى معركة الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦م :

وأخيراً لبى "يوسف بن تاشفين" نداءات الفقهاء ووفودهم وقرر العبور إلى الأندلس، وكانت وفود ثغور الأندلس ماتزال تفد إليه مستعطفين مجهشين بالبكاء ناشدين فيه الله والإسلام، مستنجدين بفقهاء حضرته ووزراء دولته وهو يسمع لهم ويصغى لقولهم وترق نفسه لهم (١٣٢).

وواصل الفقهاء دورهم فى الطواف فى كل أنحاء الأندلس يستنفرون الناس قبل بدء المعركة ويدعون لتوحيد الجهود ليمهدوا الطريق أمام القوات الإسلامية الوافدة، ومع أن ذلك - كما يبدو - كان بتكليف من "يوسف بن تاشفين" سعياً منه لتوحيد الصفوف إلا أن ذلك كان يلقى قبولاً من جموع الفقهاء (١٣٣). كما كان للفقهاء دور كبير فى المعركة من خلال الوعظ والحض على الصبر والثبات والتحذير من الفشل والفرار (١٣٤)، وقد أورد صاحب نفح الطيب أن الفقيه "أبا العباس أحمد بن رميلة" (١٣٥) قد بشر المسلمين بالفوز بعد أن رأى النبى (صلى الله عليه وسلم) فى منامه وبشره بالشهادة فى سبيل الله، وقد تحققت رؤياه حيث انتصر المسلمون ونال الشهادة (١٣٦). وقد نعم بالشهادة فقهاء آخرون منهم الفقيه المغربى "عبدالملك المصمودى" قاضى الجماعة فى مراكش الذى دخل الأندلس مع موكب المجاهدين فنال الشهادة (١٣٧).

---

(١٣٢) المقرى : نفح الطيب، جـ ٢، ص ٥٢٧.
(١٣٣) حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين، ص ٢٦٩.
(١٣٤) المقرى : نفح الطيب، جـ ٢، ص ٥٢٩.
(١٣٥) أبو العباس أحمد بن رميلة هو أحمد بن محمد بن فرج الأنصارى وكنيته أبو العباس وعرف أيضا بابن رميلة من أهل قرطبة، كان كثير التصدق وفعل الخير، وكانت له عناية بالعلم وصحبة الشيوخ، كتب العديد من أشعار الزهد، أستشهد فى الزلاقة سنة ٤٧٩هـ. أنظر ابن بشكوال : الصلة، جـ ١، ص ٧١ ؛ الناصرى : الاستقصا، جـ ٢، ص ٤١، ٤٢.
(١٣٦) المقرى : نفح الطيب، جـ ٢، ص ٥٢٩.
(١٣٧) عبدالملك المصمودى وكنيته أبو مروان، تولى القضاء فى مراكش فى بداية الدولة اللمتونية. أنظر ابن الأبار: التكملة، جـ ٢، ص ٦٣٠.

وهكذا لعب الفقهاء دوراً أساسياً فى هذا النصر العظيم الذى حققته القوات الإسلامية بزعامة " يوسف بن تاشفين " فكانوا فى مجموعهم هم الدافع إلى الاستنجاد به وإقناع ملوك الطوائف بذلك ثم فى تشجيعه على تلبية النداء ثم فى المعركة التى انتصر فيها المسلمون على النصارى فأصبح لهم. قبل غيرهم. الفضل فى إستمرار الأندلس إسلامية

وقد أحس"يوسف بن تاشفين"بعد إنتصاره فى الزلاقة بمدى ضعف ملوك الطوائف وانشغالهم عن محاربة النصارى بخلافاتهم الداخلية ، وعند محاصرته حصن لييط بعد عبوره الثانى ضاق ذرعاً بهم حيث لم يقدموا له أى عون فى هذا الحصار وتخاذلوا عن الجهاد بل ونصبوا حكماً بينهم فى خلافاتهم فقر قراره بضرورة القضاء عليهم . وفى عبوره الثالث إلى الأندلس إستفتى الفقهاء الحكم على أمير مرسية " ابن رشيق " الذى كان يدفع الجزية لـ " ألفونسو" فأفتوه بتسليمه إلى" المعتمد بن عباد " فقبض عليه وأرسله له (١٣٨) .

وقد شارك الفقهاء " ابن تاشفين " فى نظرته إلى ملوك الطوائف فترددوا عليه أثناء مرات عبوره الأندلس لحثه على ضرورة خلع هؤلاء الملوك ، ومن هؤلاء الفقهاء " أبو جعفر القليعى " قاضى غرناطة (١٣٩) ، وقد أشار " الأمير عبدالله " إلى مخادعة "القليعى" له وكرهه الشديد له ولجده حتى قال :"والله لأبلغن حفيد باديس الطينة السوداء ولأشوقه إلى درهم ينفقه على صنيع جده بى وبغيرى "، فلما علم "الأمير عبدالله " بذلك أثار عليه العامة حتى هموا بقتله، ولكنه خشى من مغبة ذلك فأمر بإخراجه على أن يكف لسانه ، فاتجه " القليعى " نحو المغرب حيث أخذ يحرض عليه " ابن تاشفين"(١٤٠) .

---

(١٣٨) الأمير عبدالله : التبيان ، ص ١١٢ .
(١٣٩) نفس المصدر، ص ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩
Dozy : Histore des musulmans d , Espane, V.L P.143 .
محمد عبدالجليل : كيف ساعد الفقهاء يوسف بن تاشفين ، ص ١٦ .
(١٤٠) الأمير عبدالله : التبيان ، ص ١١٦ .

ويصعب الإتفاق مع الذين يحاولون إرجاع دور " القليعى " إلى كرهه للبربر وعدائه لهم ذلك لأن " يوسف بن تاشفين " الذى انتصر له " القليعى " يرجع إلى أصل بربرى ، كما أن دعوته إلى خلع ملوك الطوائف قد التقت مع دعوة غالبية الفقهاء إلى ذلك ، ولذلك فإن الأمر لايقف أو يفسر من وجهة عنصرية لفظها الإسلام وترجمها الفقهاء ولكن الأمر كان يرجع إلى حماس الفقهاء فى المحافظة على الأراضى الإسلامية وإلى إرساء قواعد العدل عند الحكام المسلمين وعدم ممالأة النصارى أو التقرب إليهم (١٤١) .

ولم يكن هذا الفقيه وحده الذى سار فى هذا الاتجاه فقد أفتى الفقيه " أبو الأصبغ عيسى بن سهل الأسدى " بعدم شرعية حكم ملوك الطوائف ووجوب خلعهم (١٤٢) ، وكان قد أرسله " الأمير عبدالله " لطلب المساعدة من " ابن تاشفين " لكنه حين أحس باضطراب الأمور فى غرناطة إنحاز إلى " ابن تاشفين "وشجعه على التخلص من ملوك الطوائف (١٤٣) ، وقد ذكر " الأمير عبد الله " أن أخاه " تميم بن بلقين " صاحب مالقة قد عرض على الفقيه " ابن سهل " أموالاً مقابل قيامه بإبعاد المرابطين عن جهتهم ولكنه رفض (١٤٤) وتمسك بمجئ المرابطين وكان ضمن الوفود القادمة لـ " يوسف بن تاشفين " والتى دعته للحضور إلى الأندلس .

وإذا سلمنا جدلاً أن بعض الفقهاء قد دعا لمجئ المرابطين لأغراض شخصية وأنها وافقت موجة عامة ، فإن هناك فقهاء تنزهوا من ذلك مثل الفقيه " أبو عبدالله بن

---

(١٤١) محمد عبدالجليل : كيف ساعد الفقهاء يوسف بن تاشفين ، ص ١٨ .

(١٤٢) عيسى بن سهل الأسدى (٤١٣ - ٤٨٦هـ / ١٠١٢ - ١٠٨٤م) أصله من جيان وسكن قرطبة وكنيته أبو الأصبغ ، روى عن أبى محمد مكى بن أبى طالب وأبى عبدالله محمد بن عتاب وتفقه معه وانتفع بصحبته ، كما روى عن ابن القطان وأبى زكريا القليعى وغيرهم ، كان من كبار العلماء وجلة الفقهاء ، حافظا للرأى ذاكرا للمسائل عارفا بالنوازل بصيرا بالأحكام وله فيه مؤلف هو الإعلام بنوازل الأحكام ، ولى الشورى فى قرطبة والقضاء فى سبتة واختلفت المصادر حول توليه القضاء فى قرطبة . أنظر.؛ مقدمة كتابه : الأحكام الكبرى ، ص ٢٣ – ٢٥.؛ ابن بشكوال : الصلة ، جـ ٢ ، ص ٤١٥ .؛ النباهى : قضاة الأندلس ، ص ٩٧ .؛ ابن فرحون : الديباج ، جـ ٢ ، ص ٧٠ .؛ المقرى : أزهار الرياض ، جـ ٥ ، ص ٣٢٠ .؛ الزركلى : الأعلام ، جـ ٥ ، ص ١٠٣ .؛ محمد عبدالوهاب خلاف : غرناطة فى عهد بنى زيرى ، ص ٢٦٤ .

(١٤٣) النباهى : تاريخ قضاة الأندلس ، ص ٩٣ .

(١٤٤) الأمير عبدالله الزيرى : التبيان ، ص ١١٦ .

الفراء[١٤٥] الذى رفض الإفتاء لـ " يوسف بن تاشفين " فى طلبه الأموال من الناس للإستعانة بها فى الجهاد على الرغم من فتوى " أبو الوليد الباجى " وأغلبية فقهاء الأندلس بذلك[١٤٦] ، وأرسل له رسالة قال فيها :" فما ذكره أمير المسلمين من اقتضاء المعونة وتأخرى عن ذلك وأن الباجى وجميع القضاة والفقهاء بالعدوة والأندلس أفتوا بأن عمر بن الخطاب إقتضاها وكان صاحب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وضجيعه فى قبره ولايشك فى عدله فليس أمير المسلمين بصاحب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ولابضجيعه فى قبره ولامن لايشك فى عدله ، فإن القضاة والفقهاء أنزلوك بمنزلته فى العدل فإن الله تعالى سائلهم عن تقلدهم فيك ، وماقتضاها عمر حتى رجل مسجد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وحلف أنه ليس عنده درهم واحد فى بيت مال المسلمين ينفقه عليهم ، فلتدخل المسجد الجامع هنالك بحضرة من أهل العلم وتحلف أنه ليس عنده درهم واحد فى بيت مال المسلمين وحينئذ توجب معونتك"[١٤٧] .

ومن الواضح أن الفقهاء قد كرهوا حكم ملوك الطوائف بسبب تمزيقهم لوحدة البلاد السياسية والاجتماعية ومالوا إلى عودة الدولة الأموية التى كانت تحافظ على الوحدة المذهبية والسياسية وتقدر الفقهاء وتهتم بهم وتتخذ منهم هيئة إستشارية يؤخذ برأيها فى شؤون الدولة حتى فى شؤون الأمراء الخاصة ولو وصل الأمر إلى حد الحكم ضد أمرائها[١٤٨] ، على عكس مافعل أغلب ملوك الطوائف الذين لم يقيموا للدين وزناً وسمحوا للخارجين عنه والمستهزئين به بتولى أعلى المناصب حتى من اليهود والنصارى، وأقتصر تفضيلهم على الشعراء الذين كانوا يمدحونهم كابن زيدون وابن عمار وغيرهم .

---

(١٤٥) أبو عبدالله بن الفراء هو محمد بن أحمد بن سعيد المعافرى المقرى ويعرف بابن الفراء ، من أهل جيان يكنى " أبا عبدالله " ، كان زاهداً فاضلا ورحل فى آخر عمره إلى المشرق ، توفى بمكة سنة ٤٦٩هـ . أنظر ابن بشكوال : الصلة ، جـ ٢ ، ص ٥١٨ .

(١٤٦) النباهى : قضاة الأندلس ، ص ٧٩ .

(١٤٧) المقرى : نفح الطيب ، جـ ٤ ، ص ٣٦٠ .؛ الناصرى : الإستقصا ، جـ ٢ ، ص ٥٤ .

(١٤٨) محمد بن عبدالجليل : كيف ساعد الفقهاء يوسف بن تاشفين ، ص ٩ ، ١٠ .

دور فقهاء الأندلس فى الحفاظ على الوحدة المذهبية

بعد اندثار عقد الوحدة السياسية فى الأندلس فى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى حرص الفقهاء على الحفاظ على الوحدة المذهبية والتمسك بها وهو أمر يفسر حرصهم على محاربة المذاهب الأخرى غير مذهب مالك ، ولعل موقف الفقهاء من فقيه موسوعى هو " ابن حزم الظاهرى " يؤكد هذا الحرص . كما أبدوا تشدداً واضحاً فى محاربة البدع والقضاء عليها خشية ظهور الفتن فى ظل التفكك السياسى السائد آنذاك وهو أمر بدا فى اجتهاد الفقهاء حول تحديد مفهوم البدع وحكم الإسلام فيها .

وكان " ابن حزم" نفسه من الفقهاء الذين شاركوا فى محاربة البدع بالطبع فقد فسر معنى البدعة بأنها كل مالم يأت فى القرآن ولم يثبت عن الرسول (ﷺ) إلا أن منها مايؤجر عليه صاحبها ويعذر بما يقصد إليه من الخير ، ومنها مايكون مذموماً أو سيئاً وذكر حديث رسول الله (ﷺ) :" إن كل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار "، كما ذكر أن أهل البدع لم يفتح الله على أيديهم قرية ولارفع للإسلام راية (١٤٩) .

أما الفقيه " الطرطوشى " فقد ذكر أن أصل كلمة بدعة هو إختراع وهو الشئ الذى يحدث من غير أصل ولا مثال أحتذى به وألف مثله (١٥٠) ، ومن الفقهاء من أنف الحديث عن البدع حيث رآها أمراً مذموماً مثل الفقيه " أبو عبدالله بن عتاب " (١٥١) . وقسم الفقيه " أبو الأصبغ عيسى بن سهل " أهل البدع إلى فرقتين الأولى كافرة لإدعائها بألوهية " على " أو نبوته والثانية ضالة ومنها فرق المختارية والشيعية والزيدية ، وقد لجأ إلى هذا التفسير المبسط حتى لا ينشغل أهل الأندلس عن محاربة النصارى بمثل هذه الأشياء (١٥٢)

---

(١٤٩) ابن حزم : الفصل فى الملل والأهواء والنحل ، جـ ٥ ، ص ٩٨ .
(١٥٠) الطرطوشى : الحوادث والبدع ، ص ١٠٨ .
(١٥١) ابن سهل : الأحكام الكبرى ، ص ٩١٠ .؛ محمد خلاف : ثلاث وثائق ص١٩ ، ٢٠ .
(١٥٢) ابن سهل : الأحكام الكبرى ، ص ٩٠٩ ، ٩١٠ فى محاربة الأهواء والبدع ، ت. محمد عبد الوهاب خلاف ، ثلاث وثائق ص٢١ ، ٢٢ .

وعلى الرغم مما بدا على الفقهاء من تشدد فى محاربة هذه الأمور إلا أنهم لم ينجرفوا إلى حد تكفير أهل البدع أو إخراجهم عن الدين أو حرمانهم من المواريث ، فقد ذكر الفقيه " أبو محمد الأصيلى " أنهم لايخرجون عن الدين وأن الصحابة لم يفرقوهم عن زوجاتهم أو يحرمونهم من المواريث (١٥٣) ، وبقدر ماكان فى ذلك من إلتزام بمنهج السلف الصالح فإنه كان معبراً عن رغبتهم فى الحفاظ على وحدة المسلمين وسعياً للقضاء على هذه الأمور بأسلوب غير متشدد وحتى ينضوى الجميع تحت راية التصدى للعدوان النصرانى .

ومن أبرز البدع ماأورده " ابن سهل " فى مخطوطه (نوازل الأحكام الكبرى) التى تحدثت عن " عبدالله بن أحمد بن حاتم بن الأزدى الطليطلى " الذى كان يعد من أهل الثقة عند الفقيه " أبى زيد عبد الرحمن ين عيسى الحشا " (١٥٤) ، وكان يأخذ بشهادته ولكن شهد عليه حوالى ستون شخصاً بأنه ذكر سيرة النبى (ص) وآل بيته بتهكم وسخرية فلما ثبت للقاضى ذلك وخشى " ابن حاتم الطليطلى " من العقوبة فر إلى بطليوس ، فقام القاضى بمشاورة فقهاء طليطلة الأربعة وهم " أبو جعفر أحمد بن سعيد اللوانكى " و " أبو جعفر أحمد بن مغيث الصدفى "و" أبو عبدالله محمد بن قاسم بن مسعود القيسى"(١٥٥)

(١٥٣) ابن سهل : الأحكام الكبرى ، ص ٩٠٨ .؛ محمد عبد الوهاب : ثلاث وثائق فى محاربة الأهواء والبدع ، ص ٢٦ ، ٢٧ .

(١٥٤) أبو زيد عبدالرحمن بن محمد بن عيسى بن عبدالرحمن وكنيته أبو زيد ، تولى القضاء فى طليطلة وهومن أصل قرطبى ، كان من أهل العلم والنباهة والفهم وهو من بيت علم وفضل ، استقضاه المأمون بن ذى النون بعد الفقيه ابن صاعد الطليطلى سنة ٤٥٠هـ ، حمد أهل طليطلة أحكامه وحسن سيرته وظل فى القضاء حتى سنة ٤٦٠هـ ثم تولى القضاء بطرطوشة ثم دانية إلى أن توفى سنة ٤٧٣هـ . أنظر القاضى عياض : ترتيب المدارك ، جـ ٤ ، ص ٨١٧ .؛ ابن بشكوال : الصلة ، جـ ١ ، ص ٣٢٥ .

(١٥٥) أبو عبدالله محمد بن قاسم بن مسعود القيسى ، من طليطلة ، كان مشاورا للأحكام ، كتب إلى القضاة بطليطلة وتوفى سنة ٤٦٦هـ . أنظر ابن بشكوال : الصلة ، جـ ٢ ، ص ٥١٨ .

و"أبو المطرف عبدالرحمن بن سلمة " (١٥٦) فأجمعوا على وجوب قتله بعد إعذار (١٥٧) ووافقهم القاضى " أبو زيد بن الحشا " على ذلك وسجل أقوالهم فى عدة نسخ وأرسلها مع " محمد بن لبيد " صاحب الحسبة " الذى حملها إلى دانية ومرسية لإستطلاع رأى الفقهاء (١٥٨). ومن الملاحظ أن هذه القضية أبرزت تماسك الفقهاء ووحدتهم رغم الإنفصال السياسى وحرصهم على المشاورة ووحدة الحكم وفق رأى الأغلبية منهم. وعلى كل حال فقد ظل صاحب الحسبة يترقب ذلك الزنديق حتى لايبث سمومه ويظهر له أتباع واستطاع فى النهاية أن يقبض عليه ويقدمه للمحاكمة أمام قاضى الجماعة فى قرطبة سنة ٤٦٤هـ١٠٧١م بعد أن استمر هارباً قرابة سبع سنوات (١٥٩).

ولم تكن هذه المسألة تقف عند الاتهام بالتزندق فقط وإنما أشارت إلى تشدد الفقهاء فى الحكم عليه خشية إخفائه أغراض سياسية أو مذهبية (١٦٠)، وقد حكم عليه بالقتل بلا إعذار بناءاً على رأى فقهاء طليطلة وبحضور الفقيه " ابن سهل "، ونفذ الحكم عليه بحضور " المعتمد بن عباد " ملك إشبيلية وقرطبة (١٦١).

---

(١٥٦) أبو المطرف عبدالرحمن بن سلمة الكفانى الأنصارى، من طليطلة (٤٠١هـ ــ ٤٩٨هـ) كان دربا بالفتيا حافظا للمسائل، قليل التصنع، نوظر فى الفقه، كان مواظبا على الصلاة فى المسجد، ثقة فيما رواه، توفى سنة ٤٩٨هـ. أنظر ابن فرحون: الديباج المذهب، جـ ١، ص٤٧٧.؛ ابن بشكوال: الصلة، جـ ١، ص ٣٠٧هـ.

(١٥٧) الإعذار: إعطاء الفرد فرصة لتقديم مبرراته. أنظر ابن سهل: الأحكام الكبرى، ص ٨٨٢.

(١٥٨) صاحب الحسبة هو الذى يتولى الأمر بالمعروف إذا ظهر تركه والنهى عن المنكر إذا ظهر فعله، ويتولاها فقيه. أنظر الماوردى: الأحكام السلطانية والولايات الدينية، دار الفكر العربى، القاهرة،سنة ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م ص ١٤٧.؛ حسن على حسن: الحضارة الإسلامية فى المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، القاهرة ،سنة١٩٨٠م، ص ١٧٦.

(١٥٩) الونشريسى: المعيار المعرب، جـ ٢، ص ٣٢٨.؛ ابن سهل :الأحكام الكبرى، ص ٨٨٢.؛ ثلاث وثائق فى محاربة الأهواء والبدع، ت. محمد عبد الوهاب خلاف، ص ١٠٩.

(١٦٠) ابن سهل: الأحكام الكبرى، ص ٨٨٥، ٨٨٦.؛ ثلاث وثائق فى محاربة الأهواء والبدع، ت. محمد عبد الوهاب خلاف، ص١١٩.

(١٦١) ابن سهل: الأحكام الكبرى، ص ٨٨٧.؛ ثلاث وثائق فى محاربة الأهواء والبدع، ت. محمد خلاف، ص ١٢٣. ويلاحظ أن المعتمد بن عباد قد حضر تنفيذ الحكم فقط دون التدخل فى نوعية الحكم وفى ذلك تأكيد لإستقلال القضاء. أنظر محمد عبدالوهاب خلاف: إستقلال القضاء فى الأندلس، صورة للعلاقة بين السلطتين القضائية والتنفيذية من بداية الدولة الأموية حتى نهاية القرن الخامس الهجرى، مجلة كلية الآداب ببنى سويف، ط سنة ١٩٩٢م، ص ٢٠.

وكانت قد حدثت قضية مشابهة لذلك فى عصر الخليفة الأموى " الحكم المستنصر " سنة ٣٥٠هـ٩٥٧م وتتلخص فى ظهور زنديق يدعى " أبا الخير "سماه الفقهاء "أبا الشر"، وكان يدعو إلى المذهب الشيعى مذهب الفاطميين فى المغرب ويسعى به إلى تغيير نظام الحكم ، وقد استوجب هذا السبب أن يتشدد الفقهاء فى محاكمته وإن كانوا فى الظاهر قد اتهموه بالزندقة ، وقد ورد عند " ابن سهل " أنه سب الحكام الأمويين والفقهاء أيضاً وربما يكون ذلك من أسباب تشددهم معه وبخاصة انه قد تجول فى الأندلس محاولاً نشر مبادئه . وقد برزت فى هذه القضية شخصية القاضى الفقيه " إسحاق بن إبراهيم " و"منذر بن سعيد" (١٦٢) اللذان حكما على " أبى الخير" بالقتل بدون إعذار ونفذ الحكم بصلبه ، وسعد العامة فى الأندلس بيوم قتله واعتبروه عيداً تعبيراً عن حرصهم على التوحدوالقضاء على أسباب الفرقة وتمسكهم بدينهم وحرصهم على محاربة الخارجين عليه وكتب الفقيه " إسحاق بن إبراهيم " إلى الخليفة يصف له مشاعر العامة فرد عليه الخليفة بالشكر على جهوده والثناء عليه ، كما أشار على الفقهاء بمواصلة القضاء على كل مايثير الاضطراب ويشوش الأفكار أو يخرج عن الدين مؤكداً إلتزامه بالمذهب المالكى كمذهب رسمى للدولة (١٦٣) . وتوضح رسالة الخليفة - كما توضح القضية نفسها - مكانة الفقهاء وأهمية دورهم فى الإستقرار السياسى والإجتماعى وأهمية إعتماد الحكام عليهم لتحقيق هذه الغاية .

أما فقهاء الأندلس فى القرن الخامس الهجرى فلم يكتفوا بمساهماتهم فى تحقيق الوحدة السياسية فى الأندلس بأثر من الزاوية السياسية فقط بل شمل دورهم محاربة الفتن الداخلية أيضاً كنوع من مساعى تحقيق التوحد داخل كل كورة من كور الأندلس . فقد أورد " الأمير عبدالله " مثالاً على ذلك فيما حدث فى غرناطة عندما ثار

(١٦٢) تجدر الإشارة إلى أن منذر بن سعيد على الرغم من أنه كان شافعى المذهب إلا أن أحكامه قد استندت إلى المذهب المالكى وهو المذهب الرسمى للدولة .

(١٦٣) ابن سهل : الأحكام الكبرى ،ص ٨٩٦ – ٩٠٢ ، ثلاث وثائق فى محاربة الأهواء والبدع ، ت. محمد خلاف ، ص ٩١.

" كباب بن تميت " الذى كان قائداً بأرجذونة وأنتقير، التابعتين لغرناطة ، وقد أساء " كباب " إنتصار " الأمير عبدالله بن بلقين " على أخيه " تميم" صاحب مالقة وعلق على هذا قائلاً :"هذا ماصنعه بأخيه وطاعت له الرعايا فكيف بمن هو عبد عبيده ؟ "وكان قد استفاد من الفتن بين الأخوين (١٦٤) . كما عارض " كباب " الصلح الذى تم بين " المعتمد بن عباد " و "الأمير عبدالله" وأخذ يفسد بينهما حتى اشتكى منه " المعتمد " ، فاتفق " الأمير عبدالله " مع رسول " المعتمد " أن يتعاونا فى مواجهته حتى يترك المعقلين . ولم يكن " كباب " وحده ساخطاً على " الأمير عبدالله " حيث خشى " ابن تاقنوت " صاحب المدينة على نفسه من الأمير ، وكان له أخ قد ولى على حصن جريشة وأراد أن ينفرد به فاجتمعوا جميعاً وتعاهدوا على ألا ينعزل أحدهم إلا بعزلة الآخرين ، ولكن بمساعدة " ابن عباد " استطاع " الأمير عبدالله " أن يحصل على حصن جريشة .

وقد شاور "الأمير عبدالله " الفقهاء فى أمر "ابن تاقنوت " فكان ردهم :"إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يصلبوا أو يقتلوا " ، فقام "الأمير عبدالله " بصلبهم وجعلهم عبرة ، فلما رأى ذلك " كباب " تهيأ للحرب لكنه عاد واستسلم إدراكاً لضعف جيشه وطلب العفو من الأمير . وهكذا اعتبر الفقهاء أن الخارجين على الحكم كمن يحارب الله ورسوله وساعين فى الأرض فساداً (١٦٥) .

(١٦٤) الأمير عبدالله : التبيان ، ص ٩٦ .
(١٦٥) نفسه، ص ٩٥ ـ ٩٨ .